

بسم الله الرحمن الرحيم

- ١ -

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وأفضل المرسلين
وعلى آله وصحابه أجمعين أمليد :

فَعدما تتحقق أمنية من أمانى الانسان يسر لذلك ، وتشيع في نفسه روح
الثقة والاطمئنان ، ويصل هذا السرور إلى أعلى درجاته إذا كان اليأس قد دبَّ
إلى قلبه في يوم من الأيام ، وأعتقد أن تحقيق هذه الأمنية لا سبيل إليه .

منذ بضع سنوات كنت طالبا في كلية اللغة العربية بالرياض ، وكلفت بكتابة
بحث يتضمن جمع الشعر الإسلامي في العصر العباسي الأول وتحقيقه ، وواجهت
أثناء كتابة البحث تشتت الشعر الإسلامي وعدم العناية به ، ولا زلت أتذكر كلمات
الدكتور المشرف على البحث وهو يوصيني بدراسة ما جمعته من هذا الشعر إذا سمحت
بذلك الظروف ، وظل إبراز الاتجاه الإسلامي في الشعر العباسي أملاً يراودني حتى
شاء الله أن تتحقق هذه الأمنية بمواصلة دراستي العليا في كلية اللغة العربية بجامعة
الأزهر ، وسارعت إلى اختيار موضوع لرسالة " الماجستير " وهو " اتجاه الشعر
الإسلامي في العصر العباسي الأول " .

ومما لا شك فيه أن العصر العباسي الأول درّة في تاريخ العباسيين ، بل يعدّ
مفخرة من مفاخر تاريخ الحضارة الإسلامية كلها ، فقد بلغت الدولة الإسلامية في هذا
العصر أوج قوتها واتساعها ، وامتزج العرب بغيرهم من الشعوب الأخرى ، وانتشر
التدوين ، ونشطت ترجمة العلوم والفنون ، وحفلت المجالس والأندية بالعلوم والآداب
وشجع الخلفاء ورجال الدولة جميع البارزين وأهل المواهب الفذة ، وما خلفه العصر
العباسي من ثروة فكرية هائلة أكبر دليل على المستوى الحضارى الذى وصل إليه .

والعصر العباسي جدير بكل عناية ودراسة من قبل الباحثين ، ومن يتأمل ما كتب
عن الأدب العباسي ، والشعر العباسي يتبادر إلى ذهنه أن هذا الشعر قد درس
دراسة وافية ، واهتم به الباحثون من جميع نواحيه ، ويتغير هذا الظن عند التدقيق
والتحصيل ، فما كتب عن الشعر العباسي لا يعدو أن يكون دراسات مشتتة ، وتدرس
ناحية معينة دون العناية بالتقصي وإبراز المؤثرات في الأدب العباسي ، وأغلب هذه

الدراسات تتناول بإجمال شاعرا بعينه ، أو غرضا من أغراض الشعر ، أو ظاهرة من الظواهر الأدبية ، وينقص هذه الدراسات الشمول والاستقصاء وتوضيح الاتجاهات الشعرية ودوافعها ، ويرى محمد مصطفى هداره (١) أن حظ العصر العباسي من الدراسات الأدبية قليل ، ويؤيده جرونهام بقوله : " إن العصر العباسي كان أقل عصور الشعر العربي حظا من عناية الدارسين " (٢) .

النظر
على
شعر

وإذا كان الشعر العباسي قد حظي ببعض العناية من الدارسين للأدب العربي فإن الشعر الإسلامي في هذا العصر لم يلق شيئا من الاهتمام ، ولم يكتب عنه الباحثون كما كتبوا عن الأغراض الشعرية الأخرى ، وقد يستثنى من ذلك غرض الزهد الذي أشار إليه الأديباء على أنه غرض جديد من الأغراض التي نشأت في العصر العباسي ، وأسباب هذا الإهمال للشعر الإسلامي سيجرى تفصيلها في فصل قادم من هذا البحث .

وقد قسم الباحثون العصر العباسي إلى عصور زمنية أربعة ، وبهنا الأول منها والذي يبدأ بتولي العباسيين للخلافة سنة ١٣٢ هـ وينتهي سنة ٢٣٢ هـ وذلك كما حدده أكثر الباحثين ، وقد يدخل في موضوعنا شاعر عاش أول حياته في العصر الأموي كما يدخل في موضوعنا شاعر امتدت حياته إلى أول العصر العباسي الثاني .
وتقسيم الأدب إلى عصور مختلفة لا يعني الفصل بين هذه العصور ، ولا يعني عدم الصلة بينها ، فالعصر العباسي بمثابة امتداد طبيعي للعصر الأموي ، وإذا أمكننا تصور الفصل بينهما من الناحية السياسية فلا يمكن أن نتصور الفصل بينهما من الناحيتين الاجتماعية والعقلية بحال من الأحوال ، وفي ذلك يقول أحمد أمين :
" يخطيء من يقول أن هناك حداً فاصلاً بين الدولتين الأموية والعباسية ، وخاصة من الناحية الاجتماعية والعقلية " (٣) .

وقد اعتمدت في هذا البحث على مراجع الأدب القديمة وفي طليعتها : الأغاني لابن الفرج ، وطبقات الشعراء لابن المعتز ، ومعجم الشعراء والموشح للمرزباني ، ومعاهد التنخيص للعباسي ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ، والمعقد الفريد لابن عبد ربه ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، وتاريخ الطبري ، ومروج الذهب للمسعودي .

(١) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري : ٩

(٢) شعراء عباسيون : ٩

(٣) ضحى الاسلام : ١/١

واعتمدت على دواوين الشعراء في اثبات القصائد التي استشهدت بها في ثنايا البحث ومنها : ديوان كل من أبي تمام وأبي العتاهية وبنار وعلي بن الجهم ، والسيد الحميري وأشعار أبي الشيبان ودعلج الخزاعيين .
واستفدت مما كتبه المعاصرون عن الأدب العباسي ، ومن أهم الكتب التي استفدت منها : العصر العباسي الأول لشوقي ضيف ، والآداب العربية في العصر العباسي الأول لمحمد عبد المنعم خفاجي ، وأمراء الشعر العربي لأنيس المقدسي ، واتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري لمحمد مصطفى هداره ، وتاريخ الشعر العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري لنجيب البهيتي ، وفي الأدب العباسي لعلي احمد الزبيدي ، وضحى الاسلام لأحمد أمين ، وحديث الأربعماء لطفه حسين وغيرها .

وقد قسمت البحث إلى ثلاثة أبواب ، وتناولت في الباب الأول الحياة العباسية بمختلف جوانبها السياسية والاجتماعية والثقافية ، وحاولت الربط بين واقع الحياة العباسية وما صوره الشعراء عن هذه الحياة ، وبينت أثر انتقال الخلافة الإسلامية إلى بغداد وما تبعه من اقتباس للنظم الفارسية وغيرها من النظم السياسية والادارية ، وصورت ما وصل اليه المجتمع العباسي من ترف وثراء ، وما انتشر فيه من الرقيق والجواري والفناء ، وأوليت الحياة الثقافية عناية خاصة لما حصل من امتزاج بين الأجناس في العصر العباسي ، وما نتج عنه من اختلاط الثقافات والحضارات التي كانت سببا في انتشار التدوين ونشاط حركة التأليف والترجمة ، ونشأة العلوم الدينية واللغوية وعلم الكلام والاعتزال ، وقد تعمدت الإطالة في الحديث عن الحياة العباسية ، وذلك لتصوير المجتمع الذي عاش فيه الشعر وانبثق منه الشعراء ، ولتكون هذه الصورة بمثابة قاعدة متينة أنطلق منها لتوضيح الاتجاهات الشعرية ودوافعها من صميم الحياة العباسية ، والشعر فن يصور الحياة بمختلف عواطفها وحوادثها وانفعالاتها .

وتطور الشعر العباسي أمر لا ينكره أحد ، وقد أفضت في الكلام عن ألفاظ الشعر العباسي وأساليبه وأخيلته وأغراضه ومعانيه ، فالألفاظ قد رقت والأساليب قد لانست والأخيلة اتسعت ، والأغراض قد جددت ، والمعاني قد ابتكرت .
ومع أن الشعر فن لا يخضع للقواعد العلمية المحددة فأنني قد حاولت تحديد مفهوم الشعر الإسلامي ، ومتى نصف القصيدة بأنها إسلامية ، ومتى تنعت الشاعر بأنه إسلامي وكيف نحكم على غرض بأنه إسلامي أيضا ، كما شرحت الأسباب الكامنة وراء إهمال الشعر الإسلامي وعدم العناية به من القدماء والمعاصرين .

وفي الباب الثاني قسمت الاتجاه الإسلامي في الشعر إلى أغراض مختلفة أهمها :
الإلهيات والمديح والهجاء والدفاع عن الإسلام والرياء والزهد والمواظ ، وتحدثت
في كل غرض عن نشأته ، وأهم شعرائه ، وأبرز معانيه ، وأهم مميزات الفنية ، وترجمت
لأعلام الشعراء تراجم موجزة ، ونبّهت على ما يدخل في مفهومنا الإسلامي من كل غرض
إن لا يعتبر كل ما قيل في مديح الخليفة المسلم شعراً إسلامياً وهكذا .

وأما الباب الثالث فجعلته في فصلين ، تناولت في أحدهما مناقشة الاتجاه الإسلامي
في الشعر العباسي ، ومكانته بين الاتجاهات الشعرية الأخرى ، ثم ناقشت ما يراه
الدكتور طه حسين من تمثيل أبي نواس وأضرابه للحصر العباسي ، كما أشرت إلى ما
قاله أحمد الجوّاري من تحدي أبي الصّاهية للقرآن الكريم في زهدياته ، وحاولت جهدي
أن أتأني قبل إصدار حكم من الأحكام ، وأن أتمهل قبل رد رأي من الآراء ، جاعلاً الأمانة
العلمية نصب عيني ما استطعت إلى ذلك سبيلاً .

وفي الفصل الثاني ألقيت نظرة على أهم الخصائص الفنية العامة لهذا الشعر
من حيث المعنى والأسلوب والموسيقى ، ثم ختمت البحث بتلخيص موجز لأهم النتائج
التي توصلت إليها من إبراز لاتجاه هام من اتجاهات الشعر العربي في عصر من أزهى
العصور الإسلامية ، ذلك الاتجاه الذي ظل يخدم العقيدة والفضيلة والخلق الكريم منذ
أن شمع نور الإسلام ، وانبتقت أشعة الهدى .

وفي الختام أسأل المولى القدير التوفيق فيما كتبت ، وأستلهم منه الصواب
فيما سجلت ، إنه الهادي إلى طريق الحق والصواب .

الباب الأوّل

ويشتمل على :

- (١) الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في العصر العباسي الأوّل .
- (٢) تطور الشعر في هذا العصر .
- (٣) مفهوم الشعر الإسلامي .
- (٤) عدم دراسة الشعر الإسلامي .

الحياة في العصر العباسي الأول

الحياة السياسية :

تعد الثورة العباسية نهاية للثورات الكثيرة التي نشبت ضد الأمويين والتي انتهت بارتقاء خلقاء بني العباس عرش الخلافة وسقوط الأمويين ، وكانت هذه الثورات تتخذ طريق العنف لإسقاط الخلافة الأموية ، كثورة ابن الزبير والخوارج والشيعة وابن الأشعث ، وكانت دولة الأمويين تتعرض للخطر من هؤلاء أيما تعرض ، فقد شهر هؤلاء السلاح مراراً في وجوه الأمويين غير أنهم استطاعوا أن يكبحوا جماح الثائرين خائضين إلى ذلك بحاراً من الدم .

وقد انتهت ثورة ابن الأشعث وابن الزبير ويزيد بن المهلب بمجرد الفتك بهم وبأنصارهم ، أما ثورة الخوارج والشيعة فظلت تشتعل من حين إلى حين في العراق جنوبيه وشماليه وما وراءه من الشرق ، وقد كلفت ثورات الخوارج الأمويين جهوداً طائلة ، وبذلوا أرواحاً كثيرة في سبيل القضاء عليها . وكانت تنضم إلى هذه الثورات فئات من الموالي الذين اضطهدهم بنو أمية وحرموهم المساواة بالعرب في الحقوق ، فكثرت مطالبتهم بالعدل الاجتماعي في الحقوق والواجبات ، ووضع الموالي آمالهم في أبناء علي وأسرته الهاشمية لما تميز به حكمه من مساواة تامة بين العرب والموالي غير أنهم فقدوا في أبناء علي وأسرته الرجس الحصيف الذي يستطيع تنظيم ثورتهم حتى يكتب لها النجاح .

وقد عمد العباسيون إلى التستر على دعوتهم حتى لا يصيبهم ما أصاب العلويين من التتكيل ، وقد حدث ما جعل الأمر ينتقل إلى العباسيين بعد أن سالت دماء العلويين طويلاً ، ذلك أن علي بن عبد الله بن عباس كان بقرية «الحميمه» بالشام فنزل عليه ابن عمه أبو هاشم محمد بن علي بن أبي طالب (ابن الحنفية) وهو الذي تناصره الشيعة الكيسانية ، وحين دنت وفاته أوصى بنصيبه في الخلافة لابن عباس ، ثم تكون لأولاده ، وبهذا انتقل الكيسانيون من ولائهم لأبي هاشم ، وصاروا يوالون علياً بن عبد الله بن عباس ، على اعتبار أنه إمامهم المنتظر .

وقد أعد العباسيون للأمر عدته ، فلما انتقل الرجاء إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بعد موت علي أقام الدعوة ، وجعل عليهم النقباء ، وأوصاهم بالتكتم ، وجعل قاعدته

انطلاق الدعوة من خراسان ، ونظم الدعوة سراً من مقره بالحميمه ، ووضع خطة تنظيمها في يد ميسره في خراسان حيث كان الموالي يمتلئون سخطا على الأمويين ، ووصل الأمر الى أبي مسلمة الخلال ، فجدد في الأمر ، وكان تطاحن الأمويين على الخلافة إيذاناً بسقوط دولتهم ، وتغلب في نهاية الأمر مروان بن محمد ، وفي هذه الاثناء كان أبو مسلم الخراساني يتولى قيادة الدعوة من موطنه ، وكان من دهاة الرجال ، واستطاع أن يشعل الحرب بين المضرية واليمينية لصالح العباسيين ، ثم أعلن أبو مسلم الثورة على نصر ابن سيار والي الأمويين ، وأخذت رايات العباسيين تخفق ، وحوضر خراسان تسقط واحدة اثر أخرى في يده ، ويستصرخ والي الأمويين بمروان وبواليه على العراق ، ولكنهما كانا في شغل عنه بثورات الخوارج ، حتى استطاع الحسن بن قحطبة دخول الكوفة دون مقاومة وحينئذ تبرز إلى النور حكومة العباسيين وعلى رأسها أبو مسلمة الخلال ، وعندما علم أبو العباس السفاح بدخول الحسن للكوفة خرج إليها في أهل بيته ، يتقدمهم أعمامه وأخوه وابن عمه ، واستمرت جيوش العباسيين تلاحق مروان بن محمد حتى لقي حتفه في بوسير من بلدان الصعيد لاواخر سنة ١٣٢ هـ .

وتذكر كتب التاريخ أن العباسيين مضوا يفتكون بأفراد البيت الأموي فتكاً ذريماً حتى موتاهم لم يسلموا من المقاب ، فيقال إن قبور الخلفاء نُبِشت ، وهرقت بقايا الجثث بالتار (١) ، ماعدا قبوري معاوية وعمر بن عبدالعزيز .

وحيثما استقر الأمر للعباسيين رأوا أن يتخذوا من العراق موثلاً لخلافتهم ، فرأى المنصور أن يبتعد بحاضرة الخلافة عن الكوفة مركز العلويين ، وحتى يأمن على نفسه من الفتن ، فاختر موقعا مع عدد من أصحابه بين دجلة والفرات ، وكانت بغداد مهداً لحضارات مختلفة قبل الاسلام كالكلدانية والفارسية والآرامية ، وما لبثت أن أصبحت أهم مدينة في العالم العربي ، إذ بنيت بها المساجد والقصور ، وتكاثر بها التجار والصناع وأمها الأدباء والعلماء من كل مكان ، فزخرت بالحياة ، ولم تزل بغداد حاضرة العباسيين حتى رأى الممتصم أن يعتزل بجنده فينى سامراء شرقي دجلة سنة ٢٢١ هـ .

أما النظم السياسية والادارية في العصر العباسي فقد كانت نظماً ساسانية بحذاقها ، فالحكم ينتقل بالوراثة ، ويطبعه الدين كما كان ذلك في الحكم الساساني .

(١) مروج الذهب للمسعودي : ١٤١/٣ .

وكان العباسيون يعدون أنفسهم ورثة الخلافة الشرعيين لأنهم من بيت النبوة ، واتخذوا من علماء الفقه والكلام سنداً لهم ، وأحاطوا بخلافتهم بهالة من التقديس ، فهم ورثة الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقد حاكى العباسيون الدواوين الساسانية فاتخذوا ديواناً للخراج ، وديواناً للرسائل وآخر للخاتم ، كما أخذ العباسيون من الساسانيين نظام الوزارة ، وكان أول من اتخذوه وزيراً أبا سلمة الخلال ، وكان جل وزرائهم من الفرس ، وقد ظل الفرس يديرون أمور الدولة مدة طويلة حتى نكبهم الرشيد ، وأتت بعدهم أسرة بني سهل في عهد المأمون وما بعده .

وتقاليد الساسانيين طبقت حتى في لباس رجال الحاشية والموظفين ، ولا نفلوا اذا قلنا أن النظم السياسية والادارية في الدولة العباسية طبعت بطابع فارسية قوية .

وقد واجه العباسيون كثيراً من الفتن والثورات كما واجهها أسلافهم الأمويون ، وكانت دوافع هذه الفتن والثورات ما بين سياسية ودينية ، وكان العلويون والخوارج أهم من وقف في وجه العباسيين ، فقد أخذ العلويون يشيرون أنهم أحق بالخلافة من العباسيين لأنهم أبناء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم ، ورد عليهم العباسيون بأنه ينبغي أن يرجع في ذلك الى أصل حكم الله في المواريث ، والذي يقضي بتولي العباسيين ، وثار عدد من زعماء العلويين في فترات مختلفة ومنهم محمد بن عبد الله وأخوه ابراهيم ، و ابراهيم بن موسى ثم من بعد محمد بن جعفر الصادق ، وانتهت ثوراتهم بالقضاء عليهم ، وكان التشيع يحظى بالجانب الأكبر من معارضة العباسيين .

أما الخوارج فكانوا أقل شأنًا ، فقد فتك بهم الأمويون فتكاً ذريعاً ، ولم يبق منهم سوى فلول في أنحاء متفرقة بعمان والجزيرة وخراسان ، وكانت ثورة الوليد بن طريف الشيباني ، وعبد السلام الخارجي ، وثورة خوارج عمان الاباضية أهم الثورات التي واجهها العباسيون من الخوارج ، واستطاعوا القضاء عليها ، ولذلك لم تترك أثراً واضحاً في الحياة الأدبية كما كانت في العصر الأموي الذي كثر فيه الشعراء المؤيدون للخوارج .

ونشبت الخلافات بين العباسيين أنفسهم ، فثار على المنصور عمه عبد الله سنة ١٣٦ هـ ، وانتهت ثورته بقضاء أبي مسلم الخراساني عليه ، وتعقب المهدي الزنادقة ، وقضى على كثير منهم ، كما نشب الخلاف بين الأمين والمأمون وانتهى بالقضاء على الأمين سنة ١٦٨ هـ .

وواجه المأمون ما بين سنة ٢٠١ هـ وسنة ٢٢٤ هـ ثورة بابك الحزمي ثم ثورة مازيار بن قارن بطبرستان ، وانتهى الأمر بقتلها وصلبها ، ويلاحظ نقطة سوداء في عهد المأمون وهي القول بفتنة خلق القرآن ، ولا ننسى أن نشير هنا الى انتصارات الرشيد على البيزنطيين وفتح المعتصم لعمورية .

وكان لهذه الأحداث السياسية الداخلية والخارجية أثر كبير على الحياة الأدبية ، كما كان لها صداها في نفوس الشعراء الذين رأوا أحداثا أنطقتهم ، وجعلتهم يعبرون عن اتجاهاتهم ومذاهبهم ، فبعضهم أيد العباسيين ودافع عن حقهم في الخلافة ، وبعض أيد العلويين ويكى على قتلاهم ، وقسم آخر أشاد بانتصارات الدولة على أعدائها في الداخل والخارج ، وكانت هذه الانتصارات مادة حية لملاحم رائعة نظمها الشعراء في البطولة والحماسة ورسم أروع الصور لانتصارات جيوش الاسلام ، فتغنى كثير من الشعراء بفتح عمورية ، وأشاد آخرون بانتصارات الرشيد على البيزنطيين ، وهللوا للقضاء على أعداء الدولة الثائرين أمثال بابك الحزمي ومازيار بن قارن ، وبذلك كان الوضع السياسي في هذا العصر محركا لعواطف الشعراء مما دفعهم الى تسجيل هذه الحوادث بأسلوب موجز وبيان ساهر أضاف ثروة فكرية الى رصيد الأدب العربي .

الحياة الاجتماعية :

كان العرب في حياتهم الأولى يميلون الى البداوة والخشونة ، وساعد على ذلك حياتهم البدائية التي كانوا يعيشونها ، وفي العصر الأموي بدأ الترف يدب في المجتمع الاسلامي ، وتوسعت الفتوحات الاسلامية ، وامتلات خزائن الدولة بالأموال ، ولكن مع هذا لم يصل الترف ، ولم تصل الحضارة في العصر الأموي الى ما وصلت اليه في العصر العباسي فعندما فتح العرب العراق وايران والشام ومصر ورثوا ما في الأولى من الحضارات الساسانية والكلدانية والآرامية ، وما في الثالثة والرابعة من حضارات بيزنطية وسامية قديمة ومصرية .

وكان طبيعياً أن تغلب على الأمويين بدمشق الحضارة البيزنطية ، حتى إذا نقل العباسيون حاضرة الخلافة الى بغداد غلبت عليهم الحضارة الساسانية ، ويبدو هذا واضحاً في بناء بغداد التي تشبه المدائن ، وجدير بنا هنا أن نبسط القول في بعض المظاهر الاجتماعية التي انتشرت في ذلك العصر من حضارة وثراء وترف ، وكيف انتشرت

تجارة الرقيق والجواري ، وشاع الغناء ، وما وصلت اليه الحياة من مجون ، وما تخللها من انحراف ديني كالشعبوية والزندقة ، وفي مقابل هذا كانت هناك طائفة تميل الى الزهد والورع ، وتبتعد عما انغمس فيه الناس من ترف ومجون .

ولما ورث العرب تلك الحضارات المختلفة حاكموها وقلدوها في نظمهم المختلفة وامتد تأثير هذه الحضارات الى الأدب واللغة والترجمة على ما سيأتي تفصيله في الحديث عن الحياة العقلية .

أما الترف والثراء فتروى لنا كتب التاريخ والأدب أيضاً من أخبار الخلفاء والولاة والقواد وعمامة الشعب ، وما كانوا عليه من ثراء وترف ، ولقد كانت خزائن الدولة هي المعين على ذلك ، فقد كانت حمول الذهب والفضة تحمل اليها من أطراف الأرض ، حتى وصل دخل بيت المال في عهد الرشيد نحو سبعين (١) مليوناً من الدينانير ، وكانت هذه الأثمار الدافقة من الأموال تُصَبُّ في حجور الخلفاء ومن حولهم من الوزراء والقواد والولاة والشعراء والمغنين .

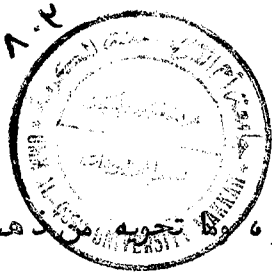
ونسوق هنا أمثلة لهذا الترف والثراء ، فقد رُوي أن المنصور فرض لكل شخص من أهل بيته ألف ألف درهم في كل عام (٢) ، وكان الخلفاء والوزراء والولاة يصدقون على العلماء والأطباء والشعراء والمغنين ، ورسم المهدي لمروان بن أبي حفصة مائة ألف درهم ذائع مشهور وقد وصل الرشيد سلماً الخاسر بعشرين ألف دينار لمداخه فيه (٣) ، ونافس الوزراء في ذلك الخلفاء ، وكان للبرامكة في هذا ما ليس لأحد ، وكذلك للفضل بن الربيع وبنو سهل ، وتبعهم في ذلك القواد أمثال معن بن زائدة ، ويزيد المهلي ، ومحمد الطوسي ، وآل طاهر .

وكان لهذه السيول الدافقة من الأموال أثرها الكبير في نهضة العلوم والآداب ، والفنون ، ولم تسبب كثرة الأموال النعيم فحسب ، بل دفعت الى الثراء في الحياة وكل أسبابها المادية من دور مزخرفة ، وفرش وثيرة وثياب أنيقة معطرة ومطاعم ومشارب من كل لون ، وما الى ذلك من أدوات الزينة والملابس ، وكان حظ النساء من هذا الترف كبيراً فالحلي والعطور والعنبر تنثر بين أيديهن .

وإذا كان الترف قد وصل الى هذا الحد فقد اقتصر على طائفة معينة من الأمة ، بينما توجد طبقات أخرى تعاني مرارة البؤس وشقاء الحياة ، ولعل هذا كان أحد الأسباب في كثرة الثورات المختلفة ضد العباسيين .

(١) مقدمة ابن خلدون : ١٢٧ ، وضحي الاسلام : ١ / ١١١ (٢) تاريخ الطبري : ٦ / ٣٢٧ .

(٣) الأغاني (سأسي) : ٢١ / ٧٧ .



وكانت مجالس الخلفاء صورة من صور الترف في هذا العصر ، ولا تحويه من ذهب وفضة وغناء ونوادير وغير ذلك .
وهناك ظاهرة اجتماعية في العصر العباسي تستدعي الوقوف عندها ألا وهي كثرة الرقيق والجواري ، وشيوع الغناء ، فقد كثر الرقيق في هذا العصر كثرة مفرطة ، بسبب من كانوا يؤسرون في الحروب ، وبسبب انتشار تجارته ، حتى كان في بغداد شارع يسمى شارع الرقيق (١) وكان الرقيق يجلب من بلاد النج وأفريقية الشرقية والهند وأواسط آسيا ، وكانت هذه التجارة موجودة في العصر الأموي ، ولكنها زادت في العصر العباسي حتى اكتظت بها القصور ، وكان رقيق النساء من الجواري أكثر عددا من رقيق الرجال ، وكانت الجواري من أجناس وثقافات وديانات مختلفة ، فمنهن السنديات والفارسيات والروميات والحبشيات ، وبسبب هذه الكثرة ، وذلك الاختلاف كان لهن أثر بعيد امتد الى قصور الخلافة ، وكان أكثر الخلفاء من أبنائهن ، وكانت قصورهم تمتليء بالجواري والوصيفات ، وتبعهم في ذلك السوزراء والأمراء ، وكانت كثيرات من الجواري يتقن فنون الأدب ، بل كان منهن من يجيد نظم الشعر مثل عنان جارية الناطفي وسكن جارية محمود الوراق .
وكان نصيب الغناء في حياة العباسيين كبيرا ، فقد شغلوا به أي شغل ، وكأنه نعيمهم من دنياهم ، وقد انتقل الغناء من الحجاز الى العراق في أواخر عصر بني أمية ، وأقيمت له الدور الكبيرة في العصر العباسي ، ونثرت الأموال على المغنين والمغنيات ، وكان أشهر المغنين في هذا العصر إبراهيم الموصلي وابنه إسحاق ، وابن جامع ، ومخارق ، وبلغ رقي هذا الفن وارتفاع شأنه في النفوس أن أقبل أبناء الخلفاء وعلية القوم على تعلمه واتقانه وكان الغناء سببا في ارتفاع أثمان الجواري المغنيات ، وقد أشاعت القيان والجواري كثيرا من ضروب الرقة والظرف ، وكان لذلك أثره البالغ في الشعراء والشعر ، فشاعت في كثير من معانيهم الرقة المفرطة ، واللحمة المعبرة .

وكان بجانب الثراء والرقيق والغناء انتشار المجون ، وشرب الخمر والغزل المكشوف والغزل بالمدكر ، وما الى ذلك مما يسيء الى الأخلاق الاسلامية الرفيعة ، وكان من أهم أسباب هذا الانحلال الخلقي ما أعطته الثورة العباسية للناس من حرية مسرفة فشرب القرس الخمر وأدمنوا ، وتبعهم الناس في ذلك ، وكان من أسباب انتشار شرب الخمر اجتهاد بعض الفقهاء بتحليل بعض الأئبذة كنبذ التمر والعسل ، وتهالك الناس

(١) مرجع الذهب : ٣ / ٣١٦ .

على ادمان الخمر، حتى قيل إن المهادي والرشيدي والأمين من الخلفاء قد شربوها^(١) سواء كان هذا المشروب من النوع الذي حلله الفقهاء أم لا، وأقبل عليها الشعراء والمغنون وخمريات أبي نواس أشهر من أن نذكرها، وقد تغنى الشعراء في وصف نشوتها وأثرها في الجسد والعقل، كما وصفوا دنائها ومجالسها وندمائها وسقاتها، وكانت بساتين بخداد تمثلياً بالحانات التي يختلف إليها الشعراء وغيرهم من الفتيان.

ومما لا ريب فيه أن إدمان الخمر حينئذ دفع إلى كثير من المجون والعبث والاباحية وكان المجتمع زاخراً بزنادقة وملاحدة، وأناس من ديانات شتى مجوسية، وغير مجوسية فمضى كثيرون يطلقون لأنفسهم العنان، لا يردعهم قانون أو خلق أو دين، كما دفع هذا الفساد إلى الغزل المكشوف الذي لا تصان فيه كرامة المرأة والرجل معا، وكان مطيع بن إياس ~~إلي~~ وبشار بن برد من أبرز الشعراء الذين نظموا غزلاً مكشوفاً، كما شاعت آفة التعلق بالخلمان، وكان أول من اشتهر بالغزل فيهم والبسة بن الحباب، وتبعه أبو نواس في ذلك.

ومن يتابع هذه السطور معي يظن أن العصر العباسي والمجتمع كان مجتمعاً منحلاً أسلم نفسه للشهوات والالحاد، فمن ترف إلى غناء، ومن مجون إلى زندقة وإدمان للخمر، ومع هذا كله نقول إن هذه الظواهر الاجتماعية إنما شاعت في طبقة معينة دون بقية الطبقات فالالحاد والزندقة كانت مقصورة في أكثر جمهورها على الفرس، والمجون كان ينتشر بصفة خاصة في طبقة المترفين ومن حولهم من الشعراء، أما عامة الشعب فإنها لم تكن تعرف زندقة ولا مجونا، وإذا كانت حانات الكرخ قد اكتظت بالجوارى والقيان والمغنين، فإن مساجد بغداد كانت عامرة بالعباد والنسك، وأهل التقوى والصلاح، وكان في كل ركن منها حلقة لواعظ يذكر بالله واليوم الآخر، وكان بعض الوعاظ يقتحم قصر الخلافة ليعظ الخليفة أمثال عمرو بن عبيد، وصالح بن عبد الجليل، وابن السماك، وكان الوعاظ يلتحم بالقصص لأخذ العبرة والعظة.

وكان بجانب الوعاظ عدد كبير من النسك الذين تجنبوا لذات الدنيا، وعاشوا حياة كلها تبتل وعبادة، وفي البيان والتبيين وعيون الأخبار والعقد الفريد منشورات رائعة لأقوال مشاهيرهم أمثال سفيان الثوري وعبد الله بن المبارك والفضل بن عياض وسفيان بن عيينة وغيرهم.

وظهرت حركة الزهد في العصر العباسي الأول كرد فعل على تلك الحياة المترفة اللاهية التي لا تهتم بعبادة أو طاعة، ولكن التصوف الإسلامي لم ينضج في هذا العصر وإنما نضج في العصر التالي، وأخذت مقدماته في الظهور في هذا العصر.

(١) تاريخ الطبري: ٤٨٩/١، والأغاني: ٣٢٩/٥.

وهكذا كانت الحياة الاجتماعية في العصر العباسي ، صراح بين الترف والزهد ، بين المجون والعبادة ، بين الفساد والصلاح . إلا أن المجون والترف والزندقة كانت منتشرة في الطبقة العالية من المجتمع ، أما عامة الشعب فكانت تعيش حياة هادئة مطمئنة بعيدة عن الترف لا تعرف الزندقة والانحراف .

وكما كان الشعر العباسي حافلاً بتسجيل الأحداث السياسية ، كان صورة صادقة للحياة الاجتماعية فيه ، فوجدت صور متناقضة في هذا الشعر ، فكان أبو نواس وأضرابه يمثلون المجون والخلاعة والانحلال ، وكان أبو العتاهية وغيره من شعراء الزهد يمثلون حياة العفة والتقوى ، وصور كل من الطرفين حياته التي كان يعيشها ، ودعا الناس إلى أن يعيشوا مثله ، فأبو نواس يدعو إلى الخمر ومجالس الغناء ، وأبو العتاهية يدعو إلى العمل الصالح ونبذ الحياة الزائلة ، ومهما قيل من شك أو زيادة حول مجون أبي نواس أو زهد أبي العتاهية فانهما مع ذلك يمثلان على الأقل صورة للمجتمع وما يجري فيه ، ويحبران عن حياة متناقضة يعيشها أفراد المجتمع العباسي .

الحياة الثقافية :

عاش العرب قبل الإسلام منعزلين تقريباً عن الحضارات المجاورة لهم ، وظلت حالهم على هذا الانعزال في عصر صدر الإسلام لانصرافهم عن كل شيء بالفتح ، وبقوا على هذا الحال في العصر الأموي تقريباً عدا اتصالات بسيطة لم يكن لها أثر بعيد في الثقافة العربية لذلك ظلت الثقافة العربية ثقافة إسلامية عربية صرفة ، لم تتأثر بما حولها من الثقافات الأجنبية لا سيما وأن خلفاء بني أمية كانوا يتعصبون للعربية والعرب تعصباً شديداً .

وفي العصر العباسي وصلت الدولة إلى أقصى اتساعها ، فامتدت من حدود الصين وأواسط الهند شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً ، وضمت بين جناحيها السند وخراسان وما وراء النهر وإيران والعراق والجزيرة العربية والشام ومصر ، وهي أوطان كثيرة عاشت فيها شعوب متباينة في الجنس واللغة والثقافة .

وقد هيا العباسيون لسكان هذه الأوطان كل أسباب الامتزاج ، بل إن طبيعة المجتمع فرضت نفسها على العباسيين فرضاً ، فقد امتزج الجنس العربي بغيره من الأجناس الأخرى عن طريق المصاهرة وتسرى الأماة ، حتى أن بعض أمهات الخلفاء كانت من أصل غير عربي ، وقد استطاع الإسلام - بتعاليمه السمحة - أن يحدث امتزاجاً بين العناصر المختلفة ، وكان سكان هذه البيئات يتكلمون لغات مختلفة من فهلوية إلى آرامية إلى قبطية ، ولكن لم تلبث هذه

البلدان نحو قرن من الزمان حتى نجد العربية قد ملكت السنة سكانها ، وكان هذا تطوراً خطيراً تلتها آثار بعيدة في الثقافة العربية والأدب العربي .
وقد أقبل الفرس بوجه خاص على التعرّب إقبالاً منقطع النظير ، حتى أصبح منهم الأدباء والشعراء والنحاة ، ومع هذا لم تمت لغات هذه الشعوب بل بقيت على نطاق ضيق مما نجد أثره في اللغة العربية ، إذ نجد بعض المفردات من أصل هندي أو فارسي أو يوناني ، وكانت تعرب أحياناً بحيث تتفق مع اللسان العربي ، وقد آلف العرب في الكلمات الدخيلة مصنفات كثيرة تميّزاً لها عن المفردات العربية .

ومما لا جدال فيه أن العربية الفصحى كانت المثل الأعلى للناس في هذا العصر وخاصة الطبقات المثقفة ، وكان أهم ما دعمها القرآن الكريم ، ولا نبأخ إذا قلنا إن ألوان الثقافات العامة الموجودة في البلدان المفتوحة تحولت إلى العربية دون حاجة إلى ترجمتها ترجمة منظمة ، وذلك لأن شعوب هذه الثقافات تحولوا عرباً ، فكان أمراً عادياً أن تتحول معهم ثقافتهم ، وألا تنتظر حتى ينظم لها النقل ، وتعد للترجمة .

وكانت الثقافة الفارسية والهندية واليونانية من أهم الثقافات التي أثرت في الفكر العربي واللغة العربية ، وكانت الفارسية أبعد تأثيراً في المحيط العربي من غيرها ، فقد دخل جمهور الفرس في الاسلام ، واقتبس العرب كثيراً من صور حياتهم في المطعم والملبس وبناء القصور ونظام الخدم .

وكانت الحركة العلمية في العصر العباسي على أشدها ، وأخذ العرب يلغون بما لدى الأمم المفتوحة من ثقافات ، يتقصونها وينقلونها بكل موادها ، وكان الناشئ يتعلم في الكتائب مبادئ القراءة والكتابة وبعض سور القرآن الكريم ومسائل الحساب وبعض الأشعار والأمثال وكانت المساجد ساحات العلم الكبرى ، جمعت بين العبادة وطلب العلم ، وكان الأستاذ يستند عادة إلى اسطوانة في المسجد ويتحلق حوله طلابه ، يكتبون ما يلقيه أو يمليه ، ولكل فرع من فروع المعرفة حلقة خاصة أو حلقات مختلفة ، فهذه حلقة لفيقه وتلك أخرى لمحدث وثالثة للمؤرخ . ونشأت طائفة من العلماء الذين نوعوا معارفهم فكانوا يتحدثون في مختلف المعارف .

وقد شجع الخلفاء والوزراء جميع البارزين في مختلف العلوم ، فعندما يبرز نجم أحدهم يستدعى إلى دار الخلافة ، وتسبغ عليه العطايا ، فكان هذا من أهم الأسباب في انتشار الحركة العلمية إضافة إلى انتشار صناعة الورق بدلا من الكتابة على الجلود والقراطيس المصنوعة من ورق البردي بمصر ، وسبب ثالث ساعد على انتشار الحركة العلمية وهو أن

مجالس الخلفاء والوزراء كانت ندوات علمية يتناظر فيها العلماء كمجلس المهدي والرشيد والمأمون .

وقد تغلغت الثقافة والمعرفة في جميع الأوساط حتى أوساط العامة ، وبرزت صفوة من العلماء والأدباء استطاعت أن تنقل إلى العربية كثيراً من العلوم والمعارف ، مما دعم العربية دعماً كبيراً بما أحدثه هؤلاء من علوم ، وما خلفوه من آثار .
وكانت حركة الترجمة ، وما نقل إلى العربية سبباً من أسباب ازدهار الحركة الثقافية في العصر العباسي ، وقد وجدت الترجمة في العصر الأموي على نطاق ضيق .
ولو تتبعنا حركة الترجمة في هذا العصر لظال بنا الحديث ، ولكن يكفي أن نعلم بأن الخلفاء العباسيين في أول عهدهم شجعوا الترجمة والنقل ، وأنفقوا عليهما الأموال الطائلة ، ففي عهد الرشيد نشطت حركة الترجمة نشاطاً واسعاً ، حيث أنشئت دار الحكمة ، ووظفت فيها طائفة كبيرة من المترجمين ، وجلبت الكتب إليها من بلاد الروم ، وكان للبرامكة فضل عظيم في هذا المجال ، وقد وصلت الترجمة إلى أقصى غاياتها في عهد المأمون .

أما العلوم العربية فقد لاقت اهتماماً كبيراً لا سيما العلوم الدينية واللغوية ، فعندما شاع اللحن بين الأمم المستعربة خاف العرب على لغتهم أن تضع مقوماتها الأصلية بين تلك الشعوب التي ضعفت ملكتهم اللغوية ، وفشا فيهم اللحن ، فانبأوا يتتبعون العربية في القرآن الكريم وأشعار العرب ، وخرجوا إلى البادية التي لم تتأثر بما تأثرت به المدن من حضارة واختلاط ، وكانوا يهدفون إلى تقويم الألسنة واكتساب السليقة اللغوية السليمة وقد جمعوا بين رواية الأشعار وجمعها ووضع قواعد النحو ومصطلحاته ، كما اعتنوا بأنساب العرب وأخبارهم ، ونشأت نتيجة لذلك كلة عدة طبقات من اللغويين والنحاة ، كما تعددت المدارس النحوية كمدرستي الكوفة والبصرة .

وإلى جانب العلوم اللغوية ازدهرت العلوم الدينية وعلم الكلام والاعتزال ، وقد نشأت العلوم في ظلال الحديث النبوي الشريف الذي حمل كل المادة المتصلة بالتشريع والفقه والتفسير ، ودون العلماء هذه العلوم تدويناً عاماً منذ أوائل القرن الثاني للهجرة ، ثم اتخذ العلماء طريقة جديدة تقوم على تخليص الحديث من الفقه ، كما نشأ نتيجة لذلك علم التعديل والتجريح الذي يحيط بالحديث بسياج من الصحة ، وكثرت المصنفات في الفقه والحديث والتفسير ، ونشأت المذاهب الفقهية الأربعة المعروفة .
وازدهر علم الكلام في هذا العصر ، والمراد بعلم الكلام الجدل الديني في أصول العقيدة

وميادئها ، وكانت فرقة المعتزلة من أهم فرق المتكلمين الذين ملأوا بجداولهم وحجاجهم مساجد البصرة ، وجذبوا بحسن بيانهم وقوة إقناعهم كثيراً من الشباب ، حتى أن المأمون اعتنق عقيدتهم وأثار الفتنة بخلق القرآن ، ويعتبر العصر العباسي عصر الاعتزال فقد بلغ من الازدهار أن صبح العقول بصبغة فلسفية ، وعودها على دقة التعليل والمهارة في استنباط خفيات المعاني مع البرهان والحجة ، وأثر الاعتزال واضح في جميع جوانب الفكر العباسي ، ومنها الأدب خاصة فنجد كثيراً من الشعراء تتلمذوا على أيدي المعتزلة كبشار وأبي نواس والعتابي ومنصور التمرى ، وقيل في سبب تسميتهم بالمعتزلة أنهم اعتزلوا المنازعات بين الخوارج وأهل السنة والشيعة ، ووقفوا على الحياد ، وكان مؤسس المعتزلة واصل بن عطاء المتوفي سنة ١٣١ هـ ، وبعد وفاته مضى تلاميذه يفرعون مسائل الاعتزال فنشأت عن ذلك شعب اعتزالية كثيرة أهمها : البشرية والثمامية والهديلية والنظامية .

وإذا كان مجرى الأحداث السياسية قد ظهر أثره على الشعر العباسي ، فإن الحياة الثقافية كان أثرها أبعد وأعمق في الشعر العباسي ، فظهر أثر الثقافات المختلفة في الألفاظ والمعاني والأساليب ، واصطبغت معاني الشعراء بما وصل إليهم من المعاني والفلسفة ، وما قرأوه من الحكم والأمثال عن اللغات الأخرى ، وكان لظهور العلوم الدينية أثر في توجيه بعض الشعراء إلى المعاني الإسلامية الرائعة ، وكان الشعراء يستمعون إلى المحدثين والوعاظ وغيرهم ، ويجعلون مما سمعوه أدلة يحتجون بها ، وعبراً ينصحون بالاعتبار بها ، وظهر أثر الاعتزال والفلسفة واضحاً في كثير من معاني وألفاظ الشعر العباسي . وسيأتي تفصيل الحديث عن تطور الشعر العباسي في ألفاظه ومعانيه وأغراضه ، ويهمننا أن نشير هنا إلى أن انتشار الفرق الدينية كان سبباً في نشأة غرض من أغراض الشعر الإسلامي وهو الشعر المذهبي الذي يدافع فيه الشعراء المسلمون عن مذهب أهل السنة والجماعة ، ويشيدون بمن دافع عنه وأيده ، ويثلبون من هاجمه وعاداه ، ووقف كثير من الشعراء يرد على المعتزلة ويدحض ما جاء وآ به من فلسفات أفسدت العقائد السليمة ، ورفعت العقل البشري إلى مستوى أرفع من مستواه ، مما جعل كثيراً من الناس يضلون بين هذا الجلال العقيم .

ازدهار الشعر في العصر العباسي

حينما نتذكر الشعر العباسي نتذكر البيان وبراعة التصوير ودقة المعنى وسمو الخيال واتساعه ، وقد يكون هذا الحكم حكم المتسرع ، ولكن سيتضح لنا أن ما قلناه عن الشعر العباسي صحيح ، وليس معنى هذا أن الشعر في بقية العصور أصيب بالهزال أو الضعف ، ولكنه كان ولا يزال محل عناية ورعاية لأنه يفتح الأحاسيس ، ويعبر عن المشاعر ، والمشاعر موجودة في كل زمان ومكان .

وكانت للشعر قيمته الكبرى في الجاهلية ، وعظمت هذه المكانة في عصر بني أمية ولكن الاختلاط في العصر العباسي ، وامتزاج العرب بغيرهم كان له أثره الكبير على هذا النتاج الجديد في الأدب والفكر .

وقد جمع الشعر العباسي بين فصاحة البداوة ورقة الحضارة وإبداعها ، ونشأ عن ذلك شعراء تعلموا العربية ، وسموا بالمولدين ، وكان منهم العظماء كأبي نواس وبشار بن برد وقد شجع خلفاء بني العباس العلم والأدب والفن ، وكان للشعر نصيب الأسد من هذا التشجيع ، فمقدوا له المواسم ، واستموا للقوائد ، وضجوا الجوائز والبهيات ، وبذلك توفرت الأسباب لتطور الشعر من اختلاط ثقافي وتشجيع مادي ومعنوي ، فبلغ الشعر في هذا العصر غاية لم يبلغها قبله ولا بعده إلا عند المتنبى - وهو ممن أدرك أواخر العصر العباسي الأول - فقد رقت الألفاظ والأساليب ، واستحدثت المعاني البارعة ونظم الشعراء في أغراض جديدة لم يسبق أن نظم الشعراء فيها ، كما جددوا الأغراض القديمة ، وأضافوا عليها من براعتهم حلاً جديدة بعد الصقل والتهذيب .

أما ألفاظ الشعر وأساليبه فهما عنوان الذوق ، ودليل الثقافة ، ومقياس الوضوح والابداع وقد نهل شعراء هذا العصر من العربية حتى ارتووا ، وحفظوا من عيون الشعر العربي القديم والجديد ، وعاشوا في وقت ازدهار اللغة وعنفوان مجدها ، لذلك كله فقد هجر الشعراء الألفاظ الغريبة والحوشية ، وابتعدوا عن التراكيب الفاضلة والعبارات الملتوية وقل أن يحتاج المرء إلى معجم حين يقرأ لشاعر من الشعراء ليكشف عن معنى اللفظ أو الهدف من التركيب .

وكانت سمة الوضوح ظاهرة على كثير من الشعراء كأبي العتاهية وأبي نواس وابن المعتز والبحترى ، وكانت الألفاظ مع وضوحها محافظة على فصاحتها ، لأن الشعراء ألموا بمفردات اللغة ، وحفظوا القديم والجديد من الشعر ، وعاشوا في أوج قوة اللغة ، وكان

للفويين دور كبير في المحافظة على فصاحة اللغة ، فقد سجلوا أشعار الجاهليين والاسلاميين ، وكانوا حراس الشعر (١) وسدنته ، فقد عرضوا نماذج الشعر القديم على الشعراء ، وتمسكوا به تمسكاً شديداً ، وكان الشعراء يعرضون عليهم قصائد هم قبل نشرها في كثير من الأحيان ، وكان تعصب اللغويين للقديم شديداً ، يقول أبو عمرو (٢) بن العملاء : " إن المحدثين كل على غيرهم ، إن قالوا حسناً فقد سبقوا إليه ، وإن قالوا قبيحاً فمن عندهم " . ولعل هذا خطأ في تقويم الشعر ، فالجيد جيد في كل زمان ومكان ، وعلى كل حال فقد كانت لجهودهم آثار طيبة في احتذاء القديم في فصاحته وسلامته من العيوب اللغوية ،

ونتيجة للامتزاج الثقافي فقد دخلت لغة الشعراء بعض الألفاظ الأجنبية - لا سيما الفارسية - . ولكنها كانت قليلة ، ومع قلتها فقد كان الشعراء يوردون الألفاظ الأجنبية في شعرهم نظراً وتمحواً ، وظهرت هذه الألفاظ بوجه خاص عند أبي نواس ، وهذا لا يعني ضعف العربية أو عدم قدرتها على التعبير ، يقول محمد (٣) خفاجي : " فان العربية كانت أعز من أن تحني رأسها للعواصف ، وظلت كما هي لغة التفكير والأدب ، وان سايرت حركة الرقي ، ولم تقف جامدة ضعيفة الاحساس بالحياة " ويرى شوقي (٤) ضيف أن القول بضم الفارسية للعربية ادعاء فيه كثير من المبالغة ، فقد كانت الفصحى أقوى من أن تنتقم حتى لدى من كانوا يحسنون الفارسية كأبي نواس ، فقد كانت العربية تتعمق جوهر نفسه ، وذلك بفضل اللغويين الذين زدوه بها ، وبفضل اقامته بالبادية ، وحفظه لكثير من دواوين الشعر القديم ، حتى قالوا (٥) إنه يحفظ دواوين ستين امرأة فضلا عن الرجال ، ويشبهه في هذا بشار الفارسي الأصيل وزعيم الشعراء المحدثين . فالشاعر العباسي بقي محافظاً على عربيته حتى في أسلوبه المولد الذي يميل إلى الرقة والسهولة والوضوح ، مع جودة السبك وإبداع المعنى ، وقد نشأ هذا الأسلوب بدافع التحضر في العصر العباسي ، وهو أسلوب يقوم على أساس من القديم وعدة من الذوق الحضري الجديد ، أسلوب يحافظ على مادة اللغة ومقوماتها ، ويلائم بينها وبين حياة العباسيين المتحضرة ، فتتقى الألفاظ العامية المبتدلة ، كما تتقى الألفاظ الغريبة والحوشية ، فكان بذلك أسلوباً بين الغرابة والابتدال ، بين لغة البدو الراخنة

(١) العصر العباسي الأول : ١٣٩ . (٢) الأغاني (ساسي) : ١٠٩ / ١٦ .

(٣) الآداب العربية في العصر العباسي الأول : ٧٦ . (٤) العصر العباسي الأول : ١٤٢ .

(٥) طبقات ابن المعتز : ١٩٤ .

بالكلمات الحوشية ولغة العامة الحافلة بالكلمات المبتذلة .
وكان بشار أول زعماء هذا الأسلوب ، وفيه يقول ابن المعتز (١) : " كان شعره أنقى من
الراحة ، وأصفى من الزجاج ، وأسلس على اللسان من الماء العذب " . وتميز هذا
الأسلوب المولد أيضا بمحاولة استبعاد المقدمة للقصيدة ، والتي ظلت موروثا منذ
الجاهلية حتى العصر العباسي ، وفيها يصف الشاعر الأطلال والدمن ، ويستطرد إلى
وصف الصحراء والراحلة التي يركبها والحيوان الذي شاهده في الطريق ، إلى أن يصل
إلى غرضه المقصود ، وقد تكون هذه المقدمة نسيباً يجعله الشاعر كتشويق لموضوعه .
وكان ما جدّد في العصر العباسي من مظاهر الحضارة سبباً في محاولة استبعاد هذه
المقدمة ، فقد بُنيت القصور ، وانتشرت الحدائق ، وشاع شرب الخمر ، وصارت الحياة
ناعمة مترفة ، فكان لزاماً على الشاعر أن يعبر عن واقعه الذي يعيش فيه ، وقد سخر
أبونواس من الشعراء الذين يبكون الأطلال والديار ، ونصحهم بوصف الخمر ولذتها يقول :

عاج الشقي على رسم يسائه وعجت أسأل عن خمارة البلد
يبكي على طلل الماضين من أسد لا در درك قل لي من بنو أسد ؟
ويقول :

دع الأطلال تسفيها الجنوب وتبلي عهد جدتها الخطوب
على أنه كان ينسى ثورته على المقدمة المذكورة إذا مدح أو هجا ، ولعله كان يحسب
لقوة القديم حسابها ، ويراعي أذواق (٢) الخلفاء .

وبعض الشعراء انصرف إلى وصف القصور والبساتين وجمال الطبيعة ، ومع هذا كله بقي
الشاعر العباسي محافظاً على التقليد الموروث في الجملة ، على الرغم من أنه كان لا يشاهد
تلك المناظر التي يصفها ، وربما كان هذا هنيئاً وتذكيراً للوطن القديم ، زيادة على أن
نسخ القديم بالمرّة شيء صعب .

وكانت أهم العوامل التي أثرت في ألفاظ الشعر وأساليبه ثلاثة : الحضارة ،
واختلاط العرب بغيرهم ، والفناء . أما تأثير الحضارة فقد أدى إلى رقة ألفاظ الشعر
وأساليبه حتى صارت تسيل رقة وجمالا ، واستبعاد الألفاظ الغريبة والحوشية والأساليب

(١) طبقات ابن المعتز : ٢٨ . (٢) الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث لأحمد
الجواري : ٣٧٧ .

الركيكة ، كما حاول بعض الشعراء استبعاد المقدمة الموروثة ، وزخرف الشعراء لذلك أشعارهم بالمحسنات البديعية من جناس وطباق وتورية واستعارة ، وان كان البديع لم يظهر بشكل واضح إلا في العصر العباسي الأول عند أبي تمام ، ولننظر إليه وهو يصف بعيره بالسقم :

رعته الفياضي بعدما كان حقة رعاها وماء الروض ينهل ساكبه

فقد جمع بين الطباق والاستعارة وروعة التصوير .

أما تأثير الغناء فقد ظهر في انتقاء ألفاظ الشعر وجودة اختيارها ، وكانت مجالس الأدب تمتزج بمجالس الغناء ، فنظم الشعراء المقطوعات للمغنين ، واختاروا الألفاظ الرشيقة والأوزان المستحدثة القصيرة ، وابتعدوا عن الأوزان الطويلة التي لا تناسب الغناء .

أما تأثير الثقافات المختلفة على ألفاظ الشعر وأساليبه فبدا واضحاً في دخول بعض الألفاظ الأجنبية ، وفي شيوع الاصطلاحات العلمية على السنة الشعراء بعد أن كانت تجرى على السنة الفلاسفة وعلماء الكلام .

وكان للحياة في العصر العباسي أثر كبير على معاني الشعر وأخيلته ، وقد فرضت الحياة العباسية نفسها على العباسيين فرضاً ، ولم يقف الشعراء مكتوفي الأيدي هيال ما يجرى حولهم من تطور ، وقد تطورت الحياة الاجتماعية والعقلية في هذا العصر تطوراً كبيراً سبق (١) تفصيله في أول البحث .

وكان للحضارة المادية والعقلية أثرهما الكبير على معاني الشعراء وأخيلتهم ، فقد أصبحت الحضارة المادية معيناً لا ينضب استمد منها الشعراء أخيلتهم الفسيحة ومعانيهم المبتكرة فهم يعيشون في مدن تحفل بمظاهر الأبهة والترف ، وتمتليء بالغناء والفزل والمجون ، ذلك إلى طبيعة جميلة ورياض غناء وحدائق مزهرة ، ففجرت هذه المشاهد قرائح الشعراء وسمت بخيالهم ، وارتفعت بمعانيهم ، فأحسنوا التشبيه والمجاز والكناية ، وأبدعوا في الاستعارة والمبالغة المقبولة ، وإنما يخلق الخيال بعيداً حينما يتهيأ له الألق الرهب فيعد أن كان الشاعر يبتدىء قصيدته بالوقوف على الأطلال ، بدّل ذلك بوصف الطبيعة من أزهار وقصور وساتين ، بل إن بعض الشعراء خص وصف جمال الطبيعة بمقطوعات كاملة .

وكان أثر الحياة العقلية في هذا العصر كبيراً على المعاني والأخيلة ، ونستطيع تلخيص

(١) انظر الحياة الاجتماعية والعقلية في أول البحث : ه وما بعدها .

تطور المعاني والأخيلة في النقاط التالية :

١- جدد الشعراء في هذا العصر بعض المعاني القديمة بما تمليه عليهم حضارتهم فزادوا ونقصوا ، وأوجزوا وأطنبوا ، وصبغوا المعاني بصيغة جديدة حتى كأنها من صنمهم ، فهذا النابغة يصف قدرة النعمان بقوله :

فانك كالليل الذي هو مدركي وان خلت أن المنتأى عنك واسع

ويأتي سلم الخاسر ليبدع في المعنى نفسه فيقول :

فأنت كالدهر مبثوثا حباظله والدهر لا ملجأ منه ولا مهرب

ولو ملكت عنان الريح أصرفها في كل ناحية ما فاتك الطلب

٢- ابتكار المعاني ودقتها واستقصائها ، وهذا الابتكار للمعاني لا يعد ولا يحصى ، فقد ابتكر الشعراء العباسيون من المعاني الجديدة ما لا يحصر ، وذلك بسبب كثرة مشاهداتهم وتنوع ثقافتهم ، واتصفت مع جديتها بالجمال والابداع ، واستمع إلى بشار يتحدث عن عشق الاذن بقوله :

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحياناً

قالوا بمن لا ترى تهذى؟ فقلت لهم الأذن كالعين توفي القلب ما كانا

وهذا أبو تمام يستقصي المعنى في تكذيب المنجمين :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريب

ويحيط بالمعنى من كل جانب في ثمانية أبيات .

٣- قوة التصوير وبراعة الخيال ، نتيجة للحياة العقلية التي أثرت في خيال الشاعر العباسي ، وأطمت عليه الدقة والبراعة ، وهذا بشار يصف الجيش والقتال ويبدع أكثر من إبداع المبصرين فيقول :

وجيش كجرح الليل يزحف بالحصي وبالشوك والخطي حمر ثعالبه

غدونا له والشمس في خدر أمها تطالعنا والظل لم يجز ذائبه

بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه وتدرأ من نجى الفرار مثالبه

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيفنا ليل تهاوى كواكبـه (١)

٤- ظهور أثر الفلسفة والثقافات على الشعر ، لأن الشاعر العباسي قد قرأ تلك الكتب المترجمة من هندية وفارسية ويونانية ، وحضر مجالس أهل الطل والنحل وما يدور فيها من الفلسفة والمنطق ، وعلم الكلام الذي يعتمد على الفلسفة لم ينشأ إلا في هذا العصر ، فطبعت معاني الشعراء بطوابع عقلية دقيقة ، وأوردوا في هذه المعاني الجاهل العظيمة ، واعتمدوا على التعليل ، يقول أبو نواس في وصف الخمر :

وقد خفيت من لطفها فكأنها بقايا يقين كاد يذهبه الشك
ويقسم بشار العي إلى أقسام :

وعى الفعال كعي المقال وفي الصمت عي كعي الكلم
ويظهر أثر المذاهب الكلامية على السنة الشعراء كقول أبي تمام يمدح أبا سميعة الشخري :

عمرى عظم الدين جهمي الندى ينفي القوى ويثبت التكليفاً (١)
ويبدو التعليل وإدلاء الجاهل واضحا عند الشعراء ، وهذا بشار يقول :

ومن ذا الذي ترضى سجايه كلها كفى المرء نبلاً أن تعدّ معاييه (٢)
ويقول أبو تمام معللاً لضيق ذات يده :

لا تنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي (٣)

٥- كثرة الحكم والأمثال ، وشيوع المبالغة والتحويل ، وقد يكون سبب ذلك الاقتباس من الثقافات المترجمة ، ويقال إنه كان في ديوان صالح ابن عبد القدوس ألف مثل للمعجم وكان لأبي العتاهية أرجوزة تسمى " ذات الأمثال " تضم أربعة آلاف مثل وحكمة . أما المبالغة فقد ظهرت لأسباب عدة منها : التأثر بالفرس لغرامهم بالمبالغة والتفتح أمام آفاق الحضارة الجديدة ، وتشجيع الخلفاء لهذه المبالغات ، يقول أبو تمام في مدح المعتصم عندما فتح عمورية :

لولم يقدر جحفاً يوم الوقي لغدا من نفسه وهدها في جحفل لجب (٤)

وكانت المبالغة قد وصلت إلى غايتها في العصر العباسي الثاني عند المتنبّي ومعاصريه .

(١) ديوان أبي تمام : ٣٨٧/٢ . (٢) الديوان : ٣٠٥/١ .
(٢) الديوان : ٧٧/٣ . (٤) الديوان : ٤٧/١ .

وبراعة الاستهلال ، وحسن الانتقال ظاهران اتصف بهما الشعر العباسي ، الى جانب تلك الظواهر العديدة التي تحدثنا عنها .

واستمد الشاعر العباسي أغراض شعره من المجتمع الذي يعيش فيه ، ولبى في أغراضه حاجات عصره ومتطلبات حياته ، وقد تنوعت مشاهد الحضارة ، وتعددت ألوان الثقافة ، وحدثت في المجتمع عادات وتقاليد ، وجرى الشاعر الحياة في ذلك كله فتنوعت أغراض شعره ، وتناول بالتهذيب والصقل أغراض الشعر القديمة بما يناسب عصره ، ونظم في أغراض جديدة فرضتها عليه طبيعة الحياة .

أما الأغراض التي جدها الشاعر العباسي فهي تلك الأغراض القديمة التي تناولها الشعراء الأقدمون من مدح وهجاء ورتاء ونسيب وفخر ، واستطاع الشاعر العباسي أن يصرفها بصبغة عصره ، ويضيف عليها حلا من آثار حضارته ، وأبعد عنها ما لا يلائم ذوقه وعصره ، ولبى في أغراضه التي جدها مطالب الخلفاء والوزراء ، أو تعصب لمذهب ديني أو سياسي .

وأول الأغراض المجددة المديح ، ذلك الفرض القديم الذي تغنى فيه الشعراء بفضائل ومدوحهم ، ووصفهم بأكرم الخلال وأنبأ الصفات ، وبالغوا في الثناء عليهم إن صدقا وإن كذبا ،

وكان الشاعر الجاهلي والاسلامي يصور المثالية الخلقية في مدوحه ، ويمدحه بمدله وسياسته الحكمة ، إن كان خليفة ، وبشجاعته وبطولته إن كان قائدا ، وترددت هذه النغمات عند شعراء هذا العصر ، واستنبطوا معاني جديدة تفوق الحصر ، وأبدعوا في وصف السماحة والحلم والمروءة والعفة وعلو الهمة والشجاعة ، وأصبح الشعراء يرسمون صورة مثالية للحاكم ، وما ينبغي أن يكون عليه من الأخذ بدستور الشريعة الاسلامية ، والاتصاف بصفات رجالها المخلصين .

وتقصى الشعراء في مدائحهم جميع الأحداث التي حدثت في عصورهم ، ووصفوها وخاصة ما حدث من الثورات والفتن الداخلية ، وأبدعوا في وصف حروب الدولة مع أعدائها من الترك والبيزنطيين ، وأصبحت قصائد المديح في هذا العصر تشبه وثائق تاريخية ، وتحول المديح في بعض الأحيان إلى تاريخ .

وكان أهم ما سجلته قصائد المديح تلك الأحداث التي وقعت بين الدولة الاسلامية وبين أعدائها من الترك والبيزنطيين ، فهناك روائع لأشجع السلمي حين تغنى بفتح الرشيد لهرقلة ، وروائع أبي تمام في إشادته بفتح المعتصم لعمورية وأنقرة .

وتجلت في كثير من قصائد المديح أروع المعاني الاسلامية ، وخاصة ما قاله الشعراء في الحماسة ووصف الحروب بين الدولة وأعدائها ، وعبروا بذلك عن مشاعر المسلمين المفعمة بالفرح والمزهوة بالنصر .

وقد اهتم الشاعر العباسي في قصائد مديحه بالفضائل المعنوية من رزانة العقل والحلم وسداد الرأي ، وانصرف بذلك عن الفضائل الحسية في أكثر قصائده .

وظاهرة مدح المدن والتعصب لها جديدة في قصيدة المديح ، ونلاحظ أبيات الحكمة المبتوثة في ثنايا المدائح نتيجة للتجارب الخاصة لدى الشعراء ، وما اقتبسوه من حكم الفرس والهنود .

ووجود الأحزاب السياسية دفع إلى المديح السياسي والدفاع عن حزب سياسي معين وكان الحزب العباسي والحزب العلوي من أهم الأحزاب السياسية التي نالت كثيراً من مناصرة الشعراء .

والمبالغات الشديدة كثيرة في مدائح العباسيين لا سيما عند المتنبي ومن غاصره ففي العصر العباسي الثاني ، وتصل المبالغة إلى حد يفسد معه المعنى ، ويخرج به الممدوح عن صفات البشر ، يقول أبو نواس في مدح الرشيد :

وأخفت أهل الشرك حتى انه لتخافك النطف التي لم تخلق (١)

والهجاء غرض قديم من أغراض الشعر العربي ، فن يناقض المديح ، ويسلب المهجو صفات الرجولة من شجاعة وكرم وحلم ومروءة وغيرها .

ويتصل الهجاء بحياة الشعب اتصالاً أقوى من اتصال المديح ، وقد تطور الهجاء في العصر العباسي ، وأصبحنا لا نرى نظائر لنقائض جرير والفرزدق والأخطل في العصر الأموي ، بل اتجه الهجاء اتجاهاً جديداً يحمل في طياته الفجور والفساد ، وأصبح الشعراء العباسيون لا يتورعون عن تتبع العورات ، ووصم المهجو باللواط والزنا وما إلى ذلك من فحش ودعارة .

وكانت الحياة اللينة الرغيدة وتوفر أسباب الراحة وضعف الوانع الديني ، وانتشار اللهو والمجون أسباباً دفعت إلى هذا النوع من الهجاء المقذع الذي يترفع الانسان النزيه عن ذكره على لسانه ، ولم يكتف الشعراء بسلب المهجو صفات الرجولة ، والافحاش في السب ، بل اتجهوا في الهجاء اتجاهاً آخر هو إضحاك الناس والسخرية من المهجو ودعا إلى ذلك الفراغ وحاجة الناس إلى السامرة والاضحاك ، يقول حماد عجرد في هجاء بشار :

ما خلق الله شبيهاً له من جنه طراً ومن إنسه
والله ما الخنزير في فتنه بربعه في النتن أو خمسه (٢)

(١) الديوان : ص ٦٣ .

(٢) الأغاني : ٣٣٠ / ١٤ .

وبذلك أصبح الشاعر العباسي يصور المهجو صورة تستدعي الضحك وتجلب على السخرية وتشبه هذه الصورة الصورة "الناريكاتورية" في عصرنا الحاضر .

وشاع في العصر العباسي الهجاء بالزندقة والمجون واتباع المذاهب الدينية المنحرفة ، وكان سبب ذلك انتشار الزندقة والملل المختلفة .

وتأثر الهجاء في العصر العباسي بالحياة الجديدة ، واتجه إلى الفحش والأقذاع وإلى جانب إثارة الضحك والسخرية .

أما الرثاء فهو فن الحزن والأسى ، عرفه الشعر العربي في عصوره القديمة ، ويتميز غالباً بصدق العاطفة وحرارة اللوعة ، ويصب فيه الشاعر أروع مشاعر الحزن وأصدق الأحاسيس ويكون ذلك عندما يرثي قريباً أو صديقاً أو ابناً .

والمراثي صورة لفجيفة كبرى وخطب فادح وخسارة عظيمة ، ضاعت بسببها الآمال ، ومات الوفاء والكرم ، وانتهت الشجاعة بعد وفاة هذا الرجل العظيم ، وكلما كان الشاعر مشيراً للأشجان موقظاً للأسى في النفوس ، كلما كان ناجحاً في الوصول إلى غرضه .

والحضارة العباسية وما فيها من مظاهر الترف والرفقة كانت سبباً في رقة الشاعر وتدفق العواطف وارهاف الأحاسيس ، وكانت المراثي في العصر العباسي صورة تفيض بالحزن ، وتستلبي بالأسى ، وتعبر عن العواطف الصادقة ، وتشير في النفس لواعج الهم والحزن .

واندفع شعراء العصر العباسي ليكون خلفاءهم وقوادهم بكاءً حاراً ، يصور الخلفاء في عدلهم وشجاعتهم وكرمهم ، ويصور القواد في بطولتهم وإقدامهم ، وكيف ملأ موتهم القلوب حسرة وفزعا ، وامتن الرثاء بالحماسة ، ومضى الشاعر يمجّد البطولة في المفقود تمجيداً يثير الحسنة في النفوس ، ويدعو الشباب إلى الدفاع عن عرين الإسلام ، ومن أصدق الأمثلة على هذا ما قاله أبو تمام في رثاء محمد بن حميد الطوسي قائد المأمون ، والذي خسر صريعاً في ساحة الشرف ، وفيه يقول :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفيض ماؤها عذراً
توفيت الآمال بعد محمد وأصبح في شغل عن السفر السفر

وسجل الشعراء صفحات مشرقة لأعمال الخلفاء ، وبطولة القواد ، صفحات امتن فيها الحماس بالحزن والأسى .

وتنافس الشعراء العباسيون في استنباط المعاني النادرة في مراثيهم ، ومن طريف هذه المعاني قول مسلم بن الوليد في رثاء شخص :

أرادوا ليغفوا قبره عن عدوه فطيب تراب القبر دل على القبر (١)

وعبر كثير من شعراء العصر العباسي عن حزنهم على قتل الشيعة ، وسجلوا قصائد تفيض باللوعة ، وتستدر الدموع ، وتصور ما حل بهم من إهانة وقتل ، وما نزل بهم من كوارث ، وكان السيد الحميري ودعبل الخزاعي وديك الجن من أبرز الشعراء الذين بكوا قتل الشيعة ، وأطالوا هذا البكاء .

وظهرت في الرثاء العباسي ضروب جديدة لم تكن معروفة من قبل ، ومنها رثاء المدن الزائلة التي تعرضت للخراب ونزلت بها الكوارث ، كما رثى بعض الشعراء الحيوانات بعد موتها ، وعبروا عن حزنهم لفقدائها .

والغزل فن أجاد فيه الشاعر العباسي وأبدع ، طبعاً بذلك شهوات نفسه ومعبراً عن واقعه الذي يعيش فيه ، وقد سبق التفصيل عن الحياة الاجتماعية في هذا العصر ، وما انتشر في المجتمع من مبعون ، فقد كثرت القيان والجواري ، وشاع الفناء وكثرت مجالس الطرب التي تتعانق فيها الكؤوس ، ويتبادل الجالسون فيها الصباية والهوى ، فليس غريباً أن يشيع الغزل الماجن في مجتمع هذه عاداته وصفاته ، وليس غريباً أن يبالغ الشعراء اللذة الجسدية وأن يثيروا الفرائز ، فانصرفوا يتحدثون بكل جرأة لا يردعهم حياءً أو ضمير ، فثارت الفرائز ، وفتحت مغالق السيول والنزوات . (١)

واختفى الغزل العذرى المصنف أو كاد ، إذا استثنينا العباس بن الأحنف من شعراء الغزل في هذا العصر ، أما بقية شعراء الغزل فقد تبدلوا في وصف المرأة ، وأمعنوا في هتك حجاب العفة ، لا يردعهم ضمير ، ولا ينهاهم خلق أو دين ، ونجد أمثلة صادقة لذلك عند بشار وأبي نواس وغيرهما .

وشاع في هذا العصر نوع من الغزل لم يكن معروفاً ، وهو الغزل الشاذ بالمذكر والذي يعطي صورة واضحة للسقوط والانحراف الذي وصلت إليه الحياة الاجتماعية في هذا العصر .

وكان حماد عجرد ووالبة بن الحباب أول من نظم في الغزل بالمذكر ، وتلاههما أبو نواس والحسين بن الضحاك ومطيع بن إياس ، وغيرهم من الشعراء الإباحيين ، ممن كانوا يجتمعون على موائد الشراب ويبن أيديهم القيان والغلمان ، وهذه الظاهرة الشاذة في الغزل كانت على نطاق ضيق .

(١) الآداب العربية في العصر العباسي الأول : ١٤٨ .

ونجد عند شعراء الغزل المكشوف كثيراً من قصائد الغزل العفيف ، الذي تبدو عليه سمات الوقار والطهارة ، يقول بشار :

أبيت أرمد ما لم أكتحل بكم وفي اكتحالي بكم شاف من الرمد
رقت لكم كبدى حتى لو انكم تهوون ألا أريد العيش لم أرد
كأن قلبي إذا زكراكم عرضت من سحر هاروت أو ما روت في عقد (٢)

والوصف غرض من أوسع أغراض الشعر يعبر فيه الشاعر عن مشاهداته ، ويصور فيه ما حوله من مظاهر ، وتبدو براعة الشاعر في دقة الوصف وإحكامه . وفي الوصف يتحدث الشاعر عن بيئته ومجتمعه ، ويصف المناظر التي يراها في حياته اليومية ، ولذلك نجد الشاعر الجاهلي والإسلامي يصفان الهاجرة والفلاة والمطر والقوس ، ويظيلان الوصف في الخيل والناقة والحية وغير ذلك من المناظر التي ألفا مشاهدتها .

وإذا كان الشاعر الجاهلي والأموي قد وصف مشاهد الصحراء فان الشاعر العباسي متحضر مترف ، يصف القصور والحدايق ، ويفاضل بين الورود والأزهار ، ويعبر عن الحضارة التي عاشها .

ومظاهر الحياة على اختلافها هي التي تنمي الإحساس بالجمال ، وتقوى ملكة التصوير لدى الشاعر ، وقد صور الشعراء ما وقعت عليه أعينهم من مظاهر الحضارة في رقعة وسلاسة ، وتميز الوصف في العصر العباسي بالدقة والتفصيل والتجديد في التشبيه والاستعارة والتطور الذي حدث في الوصف هو تحول الشعراء إلى وصف مظاهر الحضارة وهجرهم لوصف المشاهد التي وصفها القدماء ، فنجدهم يصفون الرياض النزهة والأمطار والوسح والحيوان والطير والقصور والبساتين وغير ذلك مما جادت به الحضارة العباسية . وقد أجاد في الوصف كثير من شعراء العصر العباسي وفي طليعتهم البحتري وابن المعتز وشعر الطرد والصيد باب من أبواب الوصف أجاد فيه الشعراء ، ونبخ فيه أبو نواس ، فوصف كلاب الصيد وآلاته ورحلاته التي كان يقوم بها ، وتحدث عن لذاته ولهوه في أيام صيده وقد تبعه ابن المعتز في شعر الطرد والصيد فيما بعد .

ولم يكتف الشاعر العباسي بطرق الأغراض الشعرية القديمة وتجديدها ، بل اخترع أغراضاً جديدة أملت عليها ظروف حياته ومظاهرها ، فقد جدت في العصر العباسي عادات وتقاليد ، ودخلت ثقافات جديدة ، وامتزجت عناصر مختلفة ، وتحول العربي من البداوة إلى الحضارة ، ومن شظف العيش إلى النعيم والهدوء والراحة ، وتلك أسباب كافية

بأن تجعل الشاعر العباسي يحدد ويبدع ، فما هي الأغراض الجديدة في شعر العباسيين ؟
كان الغزل بالمذكر والهجاء بالزندقة تطوراً حدث في الغزل والهجاء العباسيين ، ويحق
لنا هنا أن نضيفها إلى الأغراض الجديدة التي لم تكن معروفة عند الشعراء قبل العصر
العباسي .

وكان رقي الحياة العقلية في العصر العباسي سبباً في ظهور غرض جديد هو الشعر
التعليمي ، وأصبح الشعراء ينظمون القصص والمعارف والعلوم والسير والأخبار ، وكان أبا
ابن عبد الحميد أول من عمل على إشاعة هذا الفن الشعري الجديد ، فقد نظم في هذا الموضوع
تاريخاً وفقهاً وقصصاً كثيرة ، ومنها نظمه لقصص كتاب " كليلة ودمنه " كما نظم أبو العتاهية
أرجوزة تسمى " ذات الأمثال " ، وتبلغ أربعة آلاف بيت ، وسار كثير من الشعراء في هذا
الطريق ، ونظمت أشعار في الفقه والمصطلح والتاريخ وغيرها ، ومع أن النظم في الشعر
التعليمي لا يُعتبر شعراً في الحقيقة إلا أنه فن جديد اهتدى إليه الشاعر في عصر
الحضارة والتقدم .

ونظمت في العصر العباسي أشعار في النوادر والفكاهات ، وكانت تعج بها مجالس اللهو
والسمر ، يقول مروان بن أبي حفصة في لحية شيخ يقال له رباح :

لقد كانت مجالسنا فساحاً فضيقها بلحيته رباح
مبعثرة الأسافل والأعالي لها في كل زاوية جناح

ومن أهم الأغراض الشعرية التي جدت في هذا العصر الزهد ذلك الفن الجديد
الذي تردد على ألسنة الشعراء ، وصور الحياة الدنيا على أنها دار مر ، لا تستحق
ما نقوم به من أهلها ، فهي فانية زائلة ، وغداً إلى دار الخلود .

ولما كان الترف والثراء وضعف الوازع الديني واختلاط العرب بغيرهم دافعاً إلى شعر
المجون والزندقة والغزل بالمذكر ، فإنه قد يكون سبباً في نشأة الزهد ، والحياة العباسية
كانت تتمتع بنصيب كبير من الجدد والتدين والمحافظة ، وإن كنا قد صورنا ألواناً من المجون
والانحراف فإن هذا مقتصر على طبقة خاصة من الناس هي طبقة الحكام ومن حولهم ، أما بقية
الامة فهي محافظة متدينة في الغالب ، وعندما انتشر الترف ، وعم الفساد ، وكثر الانحراف
تحركت عواطف كثير من الشعراء لتحذر المنحرفين المنغمسين في ملذات الدنيا .

وظهور تيار الزهد يعتبر بمثابة رد فعل لحياة الترف والمجون ، يقول محمد خفاجي : (١)
" الزهد فن جديد نشأ في الشعر العباسي بتأثير كثرة الترف " ، ويقول محمد مصطفى
هداره (٢) : " إن وجود تيار الزهد المضاد لتيار المجون منطوق طبيعي لتطور الأشياء " .

(١) الآداب العربية في العصر العباسي الأول : ٢٠٢ . (٢) اتجاهات الشعر العربي في
القرن الثاني الهجري : ٢٩٠ .

والحياة العباسية لم تكن لهواً كلها عبثاً كلها ، ولم يكن الأدب العباسي منحصرًا في
المجون والزندقة والغزل المكشوف ، بل كانت حياة جادة متمسكة بدينها ، وكان هناك
أدب تغنى بالفضيلة ، وحث على الأخلاق ، ونعى على المنحرفين ضلالهم ، وعلى طلاب
الدنيا خسرانهم ، وتفصيل هذه المعاني والاستشهاد بنماذج شعرية تمثلها في غير
هذا المقام ، وذلك عند الحديث عن الأغراض الإسلامية في الشعر العباسي ومنها
الزهد .

وخلاصة القول أن الشاعر العباسي قد أبدع في الأغراض الشعرية القديمة ، ونسج عليها
حللاً زاهية مما شاهده وتأثر به في عصره من حضارة وعمران ، كما تفتق ذهن الشاعر عن
أغراض جديدة لم تكن معروفة في الشعر الجاهلي أو الأموي ، وسواء كانت هذه الأغراض
شراً على المجتمع أم دعوة إلى الصلاح والتقوى فإنها في الحالين تصوير لواقع الحياة ،
وتعبير عن مشاعر وأحاسيس وجدت في ذهن شعراء العصر العباسي .

وتجدر الإشارة إلى أن التطور في الشعر شمل أيضاً الأوزان والقوافي ، ومآل
الشعراء إلى الأوزان الخفيفة والمجزوءة ، لتلائم الغناء الذي انتشر في هذا العصر
على نطاق واسع ، ولتوافق حياة النعومة والترف .
وكما خرج الشعراء العباسيون عن الأوزان المعروفة تحرروا من القافية وقيودها ، ومن هذا
التحرر الشعر المسمط والمزدوج والمخمّس ، والمزدوج يتألف من شطرين من قافية ،
وآخرين من قافية أخرى ، وهكذا ، وكثر هذا النوع في الشعر التعليمي عند أبان / بن
عبد الحميد وأبي العتاهية .

ومع كل هذا التجديد في الوزن والقافية فإن الشعر الجزل الرصين هو الذي يبقى ويحفظ
أما تلك الأوزان الخفيفة والقوافي المسمطة فسرعان ما تزول بزوال ساعتها التي أنشئت
فيها ، ولكن هذا التجديد كان ضرورياً لملاءمة واقع الحياة .

مفهوم الشعر الاسلامي

منذ أن خلق الله الارثى ومن عليها والحياة صراع بين الحق والباطل ، بين الفضيلة والرزيلة ، وقد أنزل الله الأديان السماوية لتنظم علاقات البشر ، وتنشر السعادة والاطمئنان في أنحاء المعمورة ، وتوثق الصلة بين العبد وربّه .

ومع احتدام هذا الصراع الهائل استعمل كل طرف جميع الوسائل لإضفاف الطرف الآخر وتعددت هذه الوسائل وكان منها المادى ومنها المعنوى .

ومع تطور العقل البشرى نشأت الفنون ، وصارت علاقاتها بالأديان وثيقة ، واستخدمت الفنون كوسيلة من وسائل الدعوة إلى الفضيلة والتحذير من الرذيلة ، كما استعملت ضد الحق والفضيلة أحياناً ، وكانت الفنون القديمة مرتبطة بالأديان ارتباطاً وثيقاً ، لأن الدين يهدف إلى الخير ، ويدعو إلى العدل ، ويصرخ في وجه كل ظالم ، والفن يهدف إلى الإصلاح والإمتاع وفي ذلك يقول نجيب الكيلاني (١) : " فالدين والفن كلاهما وسيلة نظيفة لغاية نبيلة وهكذا يلتقي الدين والفن " .

وبعد بزوغ فجر الاسلام احتدم الصراع بينه وبين أعدائه ، وكانت الممارك مادية ومعنوية ، وشاركت الفنون في هذا الصراع ومنها فن الشعر الذى ألفه العربي منذ أقدم عصوره ، وأحبه وطرب له وتأثر ببيانه الساحر ، وانا كان العربي في جاهليته قد جعل الشعر بمثابة سجل للفخر بنفسه ، والاعتزاز بشجاعته وكرمه وانتصاره على عدوه ، فانه قد حول هذا الفن بعد دخوله في الاسلام للفخر بهذا الدين الجديد ، والدفاع عنه بكل ما أوتي من قوة في البيان والإقناع ، وشرح مزايا الدين الجديد من عدل ومساواة وتوحيد لله سبحانه وتعالى ، وقد رأينا في عصر صدر الاسلام حسان بن ثابت وعبدالله بن رواحه وجبير بن زهير يدافعون عن هذا الدين ، ويتفننون بفضائله ، ويشيدون بمن اتبع نبي الهدى صلى الله عليه وسلم .

واتسعت الفتوحات في العصر الأموى ، وسجل الشعراء تلك الفتوحات مباهين بها ، مفتخرين بهذا الدين العظيم ، محترزين بخلفائه وقادته المؤمنين ، ومع كثرة الفتوحات انتشر الرخاء والعمران ، وغلد الناس إلى الراحة ، حتى نراهم في العصر العباسي ينغمسون في الترف وتتجه طبقة منهم إلى الدنيا ومتاعها ، وتنصرف عن الآخرة والعمل لها ،

(١) الاسلامية والمذاهب الأدبية : ١٦ .

ويضعف الوازع الديني في بعض النفوس ، وتبدأ هجمات الأعداء على الدولة الإسلامية وفي هذه الظروف ينطلق الشعر الإسلامي ليؤدي دوره في المعركة ، فيدافع عن الإسلام ويبين محاسنه ، ويشيد بكفاح الدولة الإسلامية ووقوفها صامدة أمام هجمات العدو ، وذلك بقيادة خلفائها المسلمين ، وشجاعة قوادها المؤمنين الذين نذروا أنفسهم للدفاع عن عزة الإسلام .

ومع انتشار الترف والمجون نشأ تيار الزهد الذي يبين خسران المترفين المنصرفين الى متاع الدنيا الزائل والمستسلمين لفرورها ولهوها .

وعلى هذا فعلاقة الدين بالفن قديمة ، ودفاع الشعر عن الإسلام والفضيلة قديم ، يقوى ويضعف بضعف وقوة دوافعه وأسبابه ، فالعواطف الإسلامية الصادقة لا بد أن تعبر عن مشاعرها تجاه الأحداث .

والشعر الإسلامي كان ولا يزال فنا من الفنون التي وقفت تناصر الدين ، وتدافع عنه وتثير الحماسة في نفوس أبناءه كلما ادلهمت الخطوب ، وكلما أحاطت بالدين الأخطار . ولكن ، ما هو مفهوم الشعر الإسلامي ؟ وهل هناك ضابط يحدد هذا النوع من هذا الشعر ؟ في الحقيقة لم يتحدث باحث عن تحديد الشعر الإسلامي ، ولو حاول باحثان الاتفاق على مفهوم هذا الشعر لحدث الاختلاف بينهما ، وسيكون هذا الاختلاف كبيراً جداً ، لأن الشعر عاطفة ومعنى ظاهر وباطن ، فظاهر المعنى قد يكون دليلاً عليه ، وعاطفة الشاعر الخفية أحياناً قد تكون دليلاً عليه ، ومع هذا فالمعاني الإسلامية العامة قد يتفق عليها كثير من الدارسين إذا أهملنا صدق العاطفة أو كذبها ، إذ لا يهمننا أن يكون الشاعر الإسلامي قد طبق ما يدعو اليه على نفسه وعمل به ، لأن الشعراء يقولون ما لا يفعلون .

هل نستطيع أن نقول إن كل ما قاله شاعر مسلم يعتبر شعراً إسلامياً ؟

الجواب : لا ، فهناك أغراض شعرية لا تدخل في مفهوم الشعر الإسلامي ، وهناك معانٍ تحدث عنها الشعراء لا تعتبر معانٍ إسلامية ، وإن كان الشاعر في الحالتين مسلماً فالخزل - وإن كان عفيفاً - قد لا يدخل في مفهومنا لهذا الشعر ، والمديح الذي لا تبدو عليه سمات الإسلام لا يدخل في مفهوم الشعر الإسلامي أيضاً .
وتحديد مفهوم الشعر الإسلامي تحديداً علمياً دقيقاً غير ممكن ، لأن طبيعة الشعر تأبى ذلك ، ولأن نظرة الأدباء مختلفة جداً ، ولو عرضنا بيتاً من الأبيات على عشرة من الأدباء لوجدنا اختلافاً كبيراً بينهم ، فبعضهم يعده إسلامياً ، والآخر يخرج منه دائرة الشعر الإسلامي ، ولكل منهما وجهة نظره .

إذاً لا بد أن نتطالع في تحديدنا لمفهوم الشعر الإسلامي من مبادئ عامة قل أن يختلف عليها أحد ، وإن وقع الاختلاف كان بسيطاً ، بحيث لا ننظر إلى نوع الغرض الشعري ، ولا نلقي اهتماماً كبيراً على عاطفة الشاعر ، وإنما ننظر إلى ما قيل ، لا إلى من قال ، ولا إلى تطبيقه لما قاله ، فقد يكون المديح إسلامياً لأنه قيل في خليفة مسلم ، وقد يخرج المديح نفسه من دائرة الإسلام ، والهجاء قد يكون غرضاً إسلامياً عندما يرمى المهجو بالانحراف عن تعاليم الإسلام ، ويكون الشاعر صادقاً فيما قال ، كما أن الهجاء نفسه يخرج عن دائرة الشعر الإسلامي عندما يصل الشاعر إلى حد الاقتذاع أو سلب المهجو عراقة النسب أو جمال الخلقة وما إلى ذلك من الفضائل التي لا يعدها الإسلام فخراً للإنسان .

وخلاصة القول ، أن الشعر الإسلامي هو كل شعر اتضحت فيه العاطفة الدينية الصادقة ، ووسمته المعاني القرآنية ، وظهر عليه تصور الكون والحياة والأشخاص من خلال الإسلام ومثله العليا .

والدعوة إلى أي مذهب ، والترغيب فيه والترهيب من الابتعاد عنه لا تكون بالدعوة إلى التمسك به مباشرة ، ولكن تكون هذه الدعوة بطرق أخرى غير مباشرة ، فتصوير الآلام التي كابدها أتباع هذا المذهب ووصف البطولات التي خاضها معتنقوه وعرض الخلال الكريمة والشيم النبيلة التي تحلى بها رجاله واثارة الحزان على من ماتوا في سبيله ، وهجاء أعدائه الذين تصدوا لدعوته ، كل ذلك دعوة غير مباشرة إلى هذا المذهب ، وأسلوب لطيف بارع ، وكله أيضاً يعتبر إسلامياً إذا كان المذهب الذي يدعو إليه الشاعر هو الإسلام .

ومرة أخرى لا يهمننا في تحديد مفهوم الشعر الإسلامي النظر إلى من قال ، بل يهمننا النظر إلى ما قيل ، والشعراء الذين سندرس شعرهم الإسلامي وأغراضهم الإسلامية - لم يكونوا جميعاً من المطرزين بالإسلام سلوكاً وتطبيقاً على الدوام - وإنما كانت تمر بهم لحظات يرجعون فيها إلى أنفسهم ، وتشرق معاني الإيمان في قلوبهم ، فيتردد ذلك في شعرهم بمعان إسلامية رائعة .

وستتضح في ثنايا هذا البحث الأغراض الإسلامية والمعاني الإسلامية التي ردها شعراء العصر العباسي الأول ، كما ستجرى محاولة لتحديد الشعر الإسلامي في كل غرض من الأغراض ، وسيكون الحديث مفصلاً عن المعاني الإسلامية من حيث دوافعها وصدق العاطفة فيها ، وأثرها على السامع ، ولا بد من تأييد ذلك كله بنماذج من هذه

المعاني التي تعطينا فكرة واضحة عن الشعر الاسلامي الذي حددنا مفهومه بوضوح
العاطفة الاسلامية فيه ، وظهور أثر القرآن على معانيه ، وتصور الكون والحياة والأشخاص
من خلال الإسلام ومثله العليا ، وبعبارة أدق : الشعر الإسلامي المطرّم .

عدم دراسة الشعر الإسلامي

سبقت الإشارة في مقدمة هذا البحث إلى عدم العناية الكافية بدراسة الشعر
العباسي واتجاهاته المختلفة ، وأن ما صدر من دراسات أدبية للشعر العباسي إنما كان
بمثابة دراسات مشتتة ينقصها الشمول ويعوزها الاستقصاء .
وقد حظيت أغراض الشعر العربي بدراسات وافية مستفيضة في عصرنا الحاضر ، وتتناول
الدارسون في دراساتهم أكثر هذه الأغراض من مديح وهجاء وغزل وخمريات ونقائض ،
وبلغت هذه الدراسات حدّاً من التنوع والتخصص ، جعل أساتذة كليات الآداب في العالم
العربي يمانون صعوبة في بعض الأحيان عند اختيار موضوع جديد لطالب من طلاب
" الماجستير " أو " الدكتوراه " فلا يكاد يقع اختيار الاستاذ على موضوع من الموضوعات
حتى يرى أن باحثاً أو أكثر قد تناولوه ، ويجد أن كتاباً أو أكثر قد صدر فيه .

لكن الأدب الإسلامي بوجه عام والشعر الإسلامي بوجه خاص لم يلق العناية التي
لقيتها أغراض الشعر الأخرى ، ولم يلتفت إليه إلا النزر من الدارسين ، وكانت نظراتهم
عابرة لا تتكافأ مع مكانة هذا الشعر في ديوان الشعر العربي ، ولا تنهض إلى مستوى
منزلته في حياة المسلمين ، يقول نجيب الكيلاني : " إن الفن الإسلامي عامة ، والأدب
الإسلامي خاصة وتعريفهما في ظل العقيدة الدينية ، ودراستهما على ضوءها لم يحظ
بما هو أهل له من تمحيص ودراسة " . (١)

والشعر الإسلامي قد أدى رسالته الخيرة خلال أربعة عشر قرناً في تصوير مشاعر القلوب
المؤمننة ، وإرواء عواطف النفوس المتدينة ، وإلهاب حماس الجماهير المسلمة ، وحشد
طاقات الأمة الإسلامية للوقوف في وجه الغزاة من صليبيين وتتار ، وتعبئتها لدهر أعداء
الإسلام من زنادقة وملحدّين .

ويرجع إهمال الأدب الإسلامي وعدم العناية بدراسة اتجاهاته الإسلامية إلى طائفة من
الأسباب وأهمها :

(١) الإسلامية والمذاهب الأدبية : ٥ .

- ١- ما أشاعه أوائل المؤرخين لأدبنا العربي - وأغلبهم من المستشرقين وأتباعهم - من أن أثر الإسلام في الشعر كان ضعيفا باهتا ، وأن الإسلام أضعف الشعر وأخمله وحط من شأنه ، فلم يكن للإسلام ذلك الأثر البعيد في الشعر ما يوجب علينا عدم العناية بالشعر الاسلامي ، وأنه لا يستحق الدراسة والتنقيب .
 - ٢- ومن هذه الأسباب أن مصادر الأدب العربي وموسوعاته الكبرى كالآغاني والعقد الفريد والجمهرة ودواوين الحماسة والمفصليات والأصمعيات وغيرها من مجموعات الشعر العربي ومختاراته قد انصرفت إلى العناية بأغراض الشعر التقليدية وجمعها واختيارها ، فلم تكن هذه الموسوعات مصادر للشعر الإسلامي مع أنها قد تضم شعراً إسلامياً ولكنه قليل من كثير وغيث من فيض .
 - ٣- وثالث الأسباب أن كثيراً من الشعر الإسلامي لم يقله شعراء محترفون مشهورون وإنما صدر عن شعراء مقلين قالوه تعبيراً عن خلجات نفوسهم ، وتصويراً لمشاعرهم المؤلمة ، ولم يقولوا معه غيره فنسينهم مؤرخو الأدب ورواته ، ولم يذكرها مع الشعراء التقليديين .
 - ٤- ويضاف إلى هذه الأسباب الثلاثة عدم جمع الشعر الإسلامي وترتيبه ، فقد بقي مبثراً في صفحات الكتب المتفرقة ، ولم يحظ بجمع أو ترتيب ، ولم يجد من التحقيق والتنقيب العناية الكافية ، بل ظل مغترباً بأغراض أخرى من أغراض الشعر في ثنايا الكتب ، ولذلك لم نجد ديواناً أو دواوين تضم الشعر الإسلامي الملتزم .
- ولو أتيت لهذا الشعر أن يجمع ويحقق كما جمع غيره ، وأن يوضع بين أيدي الدارسين لوجدوا فيه من عناصر الأصاله وصدق العواطف وحيوية المشاعر ما يفريهم بدراسته ، ويدفعهم إلى تبيانه وتوضيحه للأجيال .
- وتجدر الإشارة إلى أن كلية اللغة العربية بالرياض قد كلفت مجموعة من طلابها بجمع الأدب الإسلامي وتحقيقه منذ ظهور الإسلام حتى اليوم ، وطبعت ثلاثة أجزاء من هذه الموسوعة الإسلامية .
- وواجب الباحثين والدارسين عظيم نحو الأدب الإسلامي الذي ظل في طي النسيان مدة طويلة ، إن يجب أن يعطى من العناية والدراسة ما هو جدير به . وسيكون هذا

الأدب - بعد دراسته وتوضيحه - مورداً عذباً ينهل منه أبناء الأمة الإسلامية فيشير حماسهم ، ويقوى عزائمهم ، ويفدى عقولهم بما فيه من مثل عليا وأخلاق حميدة وتضحيات فذة ، صورها الأدباء في أروع صورة وأجملها .

ولعل شباب الإسلام يجد في أدبه الإسلامي ما يصرفه عن ذلك الأدب الفاجر المكشوف ، والذي يشير الغرائز ، ويهدم المبادئ ، ويسم الأفكار ويحطم صروح الأخلاق الفاضلة .

أغراض الشعر الإسلامي في هذا العصر

تمهيد :

انبثق شعاع الإسلام من الجزيرة العربية ، وشع نوره على بقاع المعمورة لينير للبشرية طريقها المظلم ، ويرتفع بعقولها عن عبادة الماديات ، ويسمو بأخلاقها عن العادات البالية والتقاليد العقيمة ، وقد وقفت الفنون الإسلامية بمختلف أنواعها تؤيد هذا الدين ، وتمده بقوة معنوية هائلة ، وكان الشعر من أبرز هذه الفنون التي ساهمت في خدمة الإسلام لما له من أثر كبير في النفوس ونفوس العرب خاصة ، فهم الذين يبهرهم البيان ، ويؤثر فيهم سحر البلاغة والفصاحة .

وقد دافع شعراء صدر الإسلام والدولة الأموية عن الإسلام دفاعاً مجيداً ، ووقف بعضهم شعره في سبيل الدعوة إلى الدين الحنيف ، وتسجيل الأحداث والحروب التي وقعت بين أمة الإسلام وبين أعدائها من مشركين ويهود ومرتدين .

وفي العصر العباسي بلغت الدولة الإسلامية قمة مجدها ، وتطورت الحياة الاجتماعية والعقلية تطوراً كبيراً ، ونقلت العلوم الأجنبية إلى العربية ، وامتزج الجنس العربي بغيره من الأجناس الأخرى ، ودخل المجتمع العباسي الحضارة من أوسع أبوابها ، وبلغ الثراء حداً لا يوصف ، وخاصة عند طبقة الحكام والوزراء ومن حولهم . فكان لهذه النقلة الاجتماعية والعقلية أثرها الكبير على الفنون في ذلك العصر ، وكان الشعر من أبرز الفنون التي صورت المجتمع العباسي ، ووصفت حياة أفرادها ، وسجلت أهم عاداته وتقاليد وأحداثه .

ورأينا صورتين مختلفتين للمجتمع العباسي ، صورة المجهون والزندقة وإدمان الخمر والانصراف إلى متاع الدنيا من أموال ونساء وخمر وقصور ، وعبر الشعراء عن هذه الصورة بكل دقائقها وتفصيلها ، فوصفوا الخمر ومجالسها ، وأفحشوا في الغزل المكشوف وجأهروا بالزندقة والإلحاد ، وهتكوا الأغراض النقية في هجائهم ، وتمشقوا الغلمان ووصفوه بصفات الإناث من الرقة والخفة والجمال ، وأعلنوا خروجهم على الدين والخلق والفضيلة دون حياة أو خجل ، وبدون رادع من ضمير أو خلق أو دين .

تلك صورة من صور المجتمع العباسي مثلتها طائفة أغلبها من الأغنياء وطبقة الحكام والوزراء ومن حولهم ، وهناك صورة أخرى تختلف كل الاختلاف عن هذه الصورة ألا وهي صورة التقى والورع ، صورة الهفة والخلق الكريم ، صورة العباد والزهاد والمحدثين والوعاظ ورجال الدين والصلاح ، بل صورة عامة الشعب وسواد الناس الذين لم يعرفوا المجون والزندقة ، ولم يكن لتلك الحياة المترفة أثر على عقيدتهم وأخلاقهم .

وكانت مساجد بغداد العامة بالمحدثين والوعاظ والمصلية بحلقات المدرس والتذكير ، والمجلجلة في خشوع بقراءة القرآن الكريم ، كانت صورة هذه المساجد تقابل مجالس اللهو والخمر ، وحانات الفساد والرقص والغناء ، ونوادى المسامرة والمجون . وكما وصف كثير من الشعراء حياة الترف والمجون ، صور قسم آخر حياة التقوى والزهد ، وتصدى لأعداء الدين من مجان وزنادقة ومنحرفين ، وارتفعت أصوات عدد من الشعراء تتفنن بانتصارات الدولة الإسلامية على أعدائها من ترك وبيزنطيين ، وتمجد خلفاء المسلمين الذين يذودون عن حوزة الإسلام ، وتصور بطولة القواد الذين قدموا أرواحهم رخيصة في سبيل الله ، وتثير الحماس في نفوس الشباب المؤمن من لكي يدافع عن عقيدته وأمه .

وانصرف بعض الشعراء إلى وعظ الناس وتذكيرهم بالموت والجزاء والحساب ودعوتهم إلى الزهد في نعيم الدنيا والانصراف إلى التزود بالصالحات ، وهجا عدد آخر أولئك الزنادقة الذين تجردوا من الأخلاق الإسلامية . وبذلك وجدت في الشعر العباسي أغراض إسلامية ، وقفت تواجه المجون والشذوذ وتعطي صورة للمثل العليا والأخلاق الفاضلة ، وتعددت هذه الأغراض ، فكان منها الجديد كالزهد ومنها القديم كالمدح والهجاء والرثاء .

وبعد هذا التمهيد سيجري تفصيل الحديث عن الأغراض الإسلامية ، وأهم معانيها وأبرز دوافعها مع الاستشهاد بنماذج هية تصور هذا الاتجاه الإسلامي في نفوس الشعراء ولا بد من مناقشة آراء الأدباء حول هذه الأغراض وقيمتها المعنوية والفنية ، ومكانتها بين أغراض الشعر الأخرى .

والأغراض الإسلامية في الشعر العباسي هي : الإلهيات والمدح والهجاء والدفاع عن الإسلام والرثاء والزهد والمواظ .

الإلهيات

فطر الإنسان على الاتجاه إلى شيء مقدس يعظمه ويجله ، ويدعوه عند النواصب والخطوب ، ويشكره على فضله ونعمه ، فنحن نرى الأمم المختلفة تتجه إلى مخلوقات تقديسها اعتقاداً منها بنفعها أو ضررها ، واتجه القدماء إلى عبادة الأصنام والآلهة من أشجار وأحجار وغيرها ، وعظموا الشمس أو القمر أو النار لاعتقادهم بعظمة هذه المخلوقات.

والله سبحانه خلق الوجود فأحسن خلقه ، وأنعم على البشر فأجزل نعمه ، لذلك قامت الأديان كلها بشكره ومديحه وبيان أياديه ونعمه ، وأكثرت الكتب المقدسة من ذكره وبيان معجزاته في خلقه ، وفي القرآن الكريم آيات في الاعتراف بفضل الله ووحدانيته ، والتسليم بقوته وجبروته ، والإيمان بجزيل نعمه على المخلوقات جميعاً من حيوان ونبات وجماد .

وقد توجه الشعراء قديماً إلى الله وناجوه بأبيات غاشمة ، وتضرعوا إليه طالبين منه المغفرة والرضوان ومعترفين بعظمة مخلوقاته ، ففي الكون الكبير ونظامه ودقة إحكامه أكبر دليل على عظمة الله ، فهو الواحد الأحد المدبر لجميع الأمور ، وهو المستحق للعبادة والخضوع دون غيره .

وقد كانت المناجاة الإلهية في عصر صدر الإسلام والدولة الأموية تميل إلى البساطة والوضوح ، وإذا تعمقت أخذت شيئاً من معاني القرآن في مناجاتها ، فهذا حسان بن ثابت يقول ببساطة ووضوح :

وأنت إله العرش ربي وخالقي	بذلك ما عصرت في الناس أشهد
تعاليت رب الناس عن قول من دعا	سواك إلهاً، أنت أعلى وأمجّد
لك الغلق والنعماء والأمر كله	فإياك نستهدى وإياك نعبد (١)

وفي العصر العباسي تمتاز الثقافات ، وترجم الكتب في مختلف العلوم وعن لغات مختلفة من فارسية وهندية ويونانية ، وتنتشر حركة التدوين والتأليف ، وتكثر المحاورات والمناظرات العقلية بين أهل الملل والنحل ، وعلماء الكلام والاعتزال ، فكان لهذا كله أثر كبير على المناجاة الإلهية في هذا العصر ، يضاف إلى ذلك أثر القرآن الكريم والسنة النبوية على جميع الاتجاهات الإسلامية في الشعر ، فتحوّلت بذلك المناجاة من البساطة إلى العمق ، وتعمق الشعراء في مناجاتهم لله ، وفصلوا آياته الدالة على عظمته ، ونظروا في الكون وأسراره ،

فوجدوا فيه دليلاً على عظمة المبدع وقوة الخالق ، وزادهم ذلك إيماناً بوحداية الله ووجوب عبادته .

وراح الشعراء يناجون خالقهم ، ويمدحون الذات الإلهية ، ويتوجهون إليها بالشكر والثناء ، ويقرنون ذلك كله بما أبدعته صنعة الخالق في هذا الكون من معجزات تجعل الانسان يقف حائراً أمام عظمتها ، مقراً بالخضوع لخالقها المستحق للعبادة الذي لا ملجأ منه ، ولا مهرب إلا إليه :

والشعراء أكثر الناس تأثراً بما يشاهدون ، وأبلغ الناس تعبيراً عن المواقف القوية والمشاعر الكامنة في النفوس ، وهم أهل المشاعر الرقيقة والأحاسيس المرهفة التي تنفعل بما يمر بها ، وتعبر عن هذا الانفعال ببيان بليغ ، وأسلوب قوي مؤثر .

وإذا تأملنا الشعر في العصر العباسي الأول وجدنا أن دواوين الشعراء لا تخلو من المناجاة الإلهية والالتجاء إلى الله ، حتى عند أولئك الشعراء الذين انحرفوا عن الطريق المستقيم ، واستسلموا لشهوات النفوس ، نجد في دواوين هؤلاء أبياتاً في المناجاة الإلهية رائعة ، تفيض بالندم والحسرة ، وتأمل في مغفرة الله ورضوانه .

وقد انصرف الشعراء إلى الأغراض التقليدية من مدح وهجاء ورتاء وغيره ، واضطرتهم إلى ذلك ظروف معيشتهم وواقع مجتمعاتهم ، ولكنهم لا يلبثون أن يرجعوا إلى الله ، ويعلموا التوبة والندم على ما فات ، وتتخلل دواوينهم أبيات رائعة في مناجاة الله والرجوع إليه . وتكثر المناجاة الإلهية في أشعار الزهاد الذين قصروا شعرهم على الزهد والموعظة كأبي العتاهية ومحمود الوراق وعبدالله بن المبارك ومحمد بن كناسة .

يقول أبو العتاهية (١) :

فالحمد لله الذي هو دائم	أبداً وليس لما سواه دوامٌ
والحمد لله الذي لجلاله	ولعلمه تتصاغر الأعلام
والحمد لله الذي هو لم يزل	لا تستقل بعلمه الأوهام (٢)

(١) هو اسماعيل بن محمد بن القاسم ، العنزي بالولاء ، يكنى بأبي إسحاق ، وأبو العتاهية لقبه ، رائد الزهد في الشعر العربي ، وتغلب على شعره الروح السلامية ، ولد في عين التمر قرب الكوفة سنة ١٣٠ هـ ، ونشأ في الكوفة ، ثم سكن بغداد واتصل بالخلفاء وعلت مكانته عندهم ، توفي ببغداد سنة ٢١١ هـ . سيأتي الكلام عن زهده عند التحدث عن الزهد ، وانظر في ترجمته وأشعاره :

الأثاني : ١/٤ ، والشعر والشعراء : ٧٩١/٢ ، ووفيات الأعيان : ١٩٨/١ ، وتاريخ بغداد : ٢٥٠/٦ ، ومعاهد التنخيص : ٢٨٥/٢ ، والأعلام : ٣١٩/١ .

أما ديوانه فقد طبعه الأب لويش شينغو سنة ١٨٨٦ م وسماه " الأنوار الزاهية في ديوان أبي العتاهية " ، وفيه بعض التحريف ، وأعاد تحقيقه الدكتور شكرى فيصل ، وعلى هذا التحقيق سيكون اعتمادى .

(٢) الديوان : ٣٥٢ .

فهو يحمد الله ويشكره ، لأنه الدائم وغيره فان ، ويكرر هذا الحمد في أبياته
الثلاثة معترفا بعظمة حلم الله وسعة علمه الذي يتعدى كل علم .
ويقف أبو العتاهية مرة أخرى متضرعا أمام الله ، يطالب المصفرة والرحمة ، ويعترف بارتكابه
للمعاصي ، نادما على ما فات وآملا عفو الله لأنه أرحم الراحمين :

مقر بالذي قد كان مني	إلهي لا تعذبني فاني
وعفوك إن عفوت وحسن ظني	وما لي حيلة إلا رجائي
وأنت عليّ ذو فضل ومنّ	فكم من زلة لي في البرايا
عضضت أنا ملي وقرعت سنّي (١)	إذا فكرت في ندمي عليها

وتتردد في شعر أبي العتاهية تلك المناجاة الإلهية من دعاء وحمد وشكر ، ويقرنها أبو العتاهية
غالبا بالتهوين من أمر الدنيا ، وأنها إلى زوال ، يقول :

سبحان من يمطي بغير حساب	ملك الطوك ووارث الأرباب
ومدبر الدنيا وجاعل ليلها	سكنا ومنزل غيب كل حساب
يا نفس هلا تعلمين فأننا	في دار معتمل لدار ثواب (٢)

وأبو نواس (٣) الماجن شاعر الخمريات والفزل بالمذكر تتناثر في ديوانه أبيات إسلامية رائجة

(١) الديوان : ٣٧٥ . (٢) الديوان : ٤٢ .

(٣) هو الحسن بن هاني ، الحكيم بالولاء ، أبو نواس شاعر العراق في عصره . ولد في
"الأهواز" من بلاد خوزستان سنة ١٣٩ هـ . ونشأ في البصرة ، ثم رحل إلى بغداد
فاتصل فيها بالخلفاء العباسيين ، ثم خرج إلى دمشق ، ومنها إلى مصر ومدح
أميرها الخصب ، ثم عاد إلى بغداد إلى أن توفي بها سنة ١٩٨ هـ ، وكان ملما
باللغة فصيحاً ، قال الشعر في أكثر أغراضه ، وأجود شعره خمريات . نهج للشعر
طريقته الحضرية ، وأخرجه من اللهجة البدوية ، ويبدو أن ما قاله من الزهد كان
بعد تنسكه كما ورد في الأغاني : ٢١١٨ ، وانظر في ترجمته وأشعاره وأخباره :
الشعر والشعراء : ٧٧٠ ، وابن المعتز : ١٩٣ ، والأغاني (ساس) : ٢/١٨ ،
وتاريخ بغداد : ٤٣٦/٧ ، ووفيات الأعيان : ٣٧٣/١ ، والموشح للمرزباني : ٢٦٣ ،
ومعاهد التنصيص : ٨٣/١ . وانظر أبا نواس لكل من : عبدالرحمن صدقي ،
وعباس محمود العقاد ، وعباس مصطفى ، وعمر فروخ ، والنوادي لزكي المحاسني ،
وأخبار أبي نواس لأبي هفان . حقق ديوانه وضبطه أحمد عبدالمجيد الفزالي ،
وقد له المشرف على تحقيقه عزيز أباطه ، طبع عدة طبعات أهمها طبع مطبعة مصر
" شركة مساهمة مصرية " ١٩٥٣ م .

في الزهد والإلهيات قد تفوق في معانيها وإحكامها ما قاله أبو العتاهية - على كثرته - من أشعار الزهد ، ولعل أبا نواس كان يصحو من غفلته ، وتسمو روحه فترتفع الى خالقها معترفة بالذنب مؤملة الرحمة والغفران ، ومن المحتمل أنه قال هذه الأبيات في الزهد بعد توبته - ان صحت هذه التوبة - كما ورد في الأغاني (١) ، وسواء كان قد قالها في فترات صحوه ، أو قالها بعد توبته وتنسكه فهي قوية ومؤثرة ، تتغلغل في كلماتها معاني الندم والحسرة ، والاعتراف بكل صغيرة وكبيرة ، وسيطر على أغلب هذه الأبيات اليأس من الصفو والمغفرة ، ولنستمع اليه حين يقول :

أيا من ليس منه مجير	بمفوك من عذابك أستجير
أنا العبد المقر بكل ذنب	وأنت السيد المولى الففور
فإن عذبتني فيسوء فطني	وإن تغفر فأنت به جدير
أفر إليك منك . . وأين إلا	إليك يفر منك المستجير (٢)

فلا ثم يصرخ في أعماق أبي نواس ، والذنوب الكبيرة تجعله يقف حائراً متسائلاً بمن أستجير ؟ والى أين أفر ؟ لكن الأمل يراوده في عفو الله الواسع ورحمته التي وسعت كل شيء .

ومرة أخرى يخشع أبو نواس ، ويمطؤه الأمل لأن عفو الله لا تحده حدود ، فهو أعظم من الذنوب مهما كثرت ، يقول :

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة	فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محسن	فبمن يلون ويستجير المجرم ؟
أدعوك رب كما أمرت تضرعاً	فاذا رددت يدي فمن ذا يرحم ؟
ما لي إليك وسيلة إلا الرجاء	وجميل عفوك . . ثم أني مسلم (٣)

ونختتم إلهيات أبي نواس بأبيات من مناجاة رائعة قالها عندما حج إلى بيت الله الحرام :

إلهنا ما أعدك
ملك كل من ملك
لييك قد لبيت لك
لييك ان الحمد لك
والمك لا شريك لك
ما خاب عبد سألك
أنت له حيث سالك
لولاك يا رب هللك (٤)

(١) انظر الأغاني : ٢ / ١٨ . (٢) الديوان : ٦١٠ . (٣) الديوان : ٦١٨ .

(٤) الديوان : ٦٢٣ .

ومذا محمد الوراق (١) عاجز عن الشكر ، فنعم الله أكثر من شكرنا له مهما شكرناه
يتول :

إذا كان شكرى نعمة الله نعمة
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضلـه
علي له في مثلها يجب الشـكر
وإن طالت الأيام واتصل العـمر (٢)

وبناجي ذو النون المصري (٣) ربه مناجاة فيها اعتراف بفضلـه ، وعرض رائع لقدرته ، فهو
المهيمن الجبار المصرف لجميع الأمور :

الحمد لله حمداً لا نفاذ له
رب تعالى فلا شيء يحيط به
يا رب إنك ذو غفو ومغفرة
واجعل إلى جنة الفردوس موئلتنا
سبحان ربك رب العز من ملك
حمداً يفوت مدى الاحصاء والعدد
وهو المحيط بنا في كل مرتصد
فنجنا من عذاب الموقف النكد
مع النبيين والابرار في الفرد
من اهتدى بهدى رب العالمين هدى (٤)

أما علي بن الجهم (٥) - شاعر أهل السنة الطليح - فهو يتوكل على الله ، ويتضرع إليه
فاليه المشتكى لأن أبواب الطوك مغلقة وباب الله مفتوح ، وإلى الله يفرغ الإنسان عند

(١) محمود بن حسن الوراق ، شاعر في العصر العباسي ، أكثر شعره في الزهد والمواعظ
والحكم ، توفي في خلافة المعتصم سنة ٢٢٥ هـ . انظر في ترجمته وأشعاره :
وفيات الوفيات : ٥٦٢/٢ ، وتاريخ بغداد : ٨٧/١٣ ، وزهر الآداب : ٩٨/١ ،
والاعلام : ٤٢/٨ .

(٢) زهر الآداب : ٩٨/١ .

(٣) هو ثوبان بن ابراهيم الاخمصي المصري ، أبو الفيني . وذو النون لقبه ، وهو أحد
العباد والزهاد المشهورين من أهل النوبة ببلاد مصر ، وكانت له فصاحة وحكمة ، توفي
في الجزيرة بمصر سنة ٢٤٥ هـ . انظر في ترجمته :

وفيات الأعيان : ٢٨٠/١ ، وعلية الأوليا : ٣٣١/٩ ، والبداية والنهاية : ٣٣٧/١٠
والاعلام : ٨٨/٢ .

(٤) وعلية الأوليا : ٣٨٨/٩ .

(٥) هو علي بن الجهم بن بدر ، أبو الحسن ، من بني سامه ، من لؤي بن غالب ، شاعر
رقيق الشعر ، أديب من أهل بغداد ، كان معاصراً لأبي تمام ، وخص بالمتوكل العباسي
ثم غضب عليه المتوكل ، فنفاه إلى غراسان ، فأقام مدة . وانتقل إلى حلب ، ثم خرج
منها بجماعة يريد الغزو فاعترضه فرسان من بني كلب ، فقاتلهم ، وجرح فمات من
جراحه . انظر في ترجمته وأشعاره وأخباره :

الأغاني : ٢٠٣/١٠ ، ووفيات الأعيان : ٣٤٩/١ ، وتاريخ الطبري : ٨٦/١١ ،

وسمط اللالكى : ٥٢٦ ، ومعجم الشعراء : ٢٨٦ ، وتاريخ بغداد : ٣٦٧/١١ ،

والبستاني : ٤٣٦/١٠ ، والاعلام : ٧٧/٤ ، ومجلة المجمع العلمي : ٢٨٣/٢٥ .

وانظر أيضاً علي بن الجهم حياته وشعره لعبد الرحمن الباشا .

جمع ديوانه وحققه وجمع تكلمته خليل مردم بك وطبعه المجمع العلمي العربي بالمطبعة

المهاشمية بدمشق ١٩٤٩ م .

النوائب والخطوب ، يقول في ذلك حينما حبس :

توكلنا على رب السماء	وسلمنا لأسباب القضاء
ووطننا على غير الليالي	نفوسا سامحت بعد الأبياء
وأفنية الطوك محجبات	وياب الله مبذول الفناء
فما أرجو سواه لكشف ضرى	ولم أفزع إلى غير الدعاء
ولم لا أشتكي بثي وحزني	إلى من لا يصم عن الدعاء (١)

وهكذا تبقى المناجاة الإلهية صلة وثيقة بين الإنسان ربه ، لأن الإنسان يخطيء ويرتكب الموبقات ، ولكنه سرعان ما يندم ، ويحس بضعفه أمام قدرة الله ويتفريطه في طاعة الله الذي وهبه جميع النعم ، وهياً له من أسباب الحياة ما يوجب الشكر والطاعة ، ثم يسجل الشاعر هذه المعاني بأبيات تعبر عن مشاعره ، وتضع الأمل في عفو الله بين عينيه .

وخلاصة القول أن الإلهيات اتجاه ديني وغرض إسلامي من أغراض الشعر في هذا العصر ، نظم فيه أكثر الشعراء ، وكان العصر العباسي امتداداً لما قبله من العصور ولكن الحياة الاجتماعية فيه ، وما انتشر فيه من مجون وترف ، جعل كثيراً من الشعراء يحسون بثقل دنوبهم ، وعظمة خالقهم ، عند ذلك توجهوا إليه ، وسلموا أمورهم له ، ونظموا قصائد فيها الابتهاج والخشوع وفيها الاعتراف بعظمة مخلوقات الله ، القادر على كل شيء ، والمصرف لكل أمر من أمور السموات والأرض .

ونلاحظ في تلك النماذج التي أوردناها أمثلة للإلهيات صدق العاطفة لأن الشاعر لا يخاطب خليفة أو وزيراً يرجو عطاءهما العاجل ، وإنما يخاطب رب العالمين وأكرم الأكرمين الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

ونلاحظ أيضاً سمة الخشوع والتذلل التي تغطي معظم هذه الأبيات ، ذلك لأن الموقف موقف الأمل والرجاء أمام أعظم العظماء وطوك الطوك الله رب العالمين .

المديح

المديح فن الثناء والاكبار والاحترام ، قام بين فنون الأدب العربي مقام السجل الشعري لجوانب من حياتنا التاريخية ، إذ رسم نواحي عديدة من أعمال الملوك وسياسة الوزراء وشجاعة القواد ، وثقافة العلماء ، فأضاف إلى التاريخ — صادقا أو كاذبا — ما لم يذكره التاريخ ، كل ذلك مع إبداع في الأسلوب وروعة في المعاني وجزالة في الألفاظ .

والمديح فن قديم عرفته الأمم جميعا ، وكثر في آدابها ، وقد عُرِفَ المديح في العصر الجاهلي ، وترددت في أشعارهم عبارات الثناء إلى اليوم ، مع اختلاف في الأساليب والأشكال والمعاني .
والمديح يشكل ديواناً كبيراً وجزءاً خطيراً فن أدبنا ، لأنه يعني بوصف الرجال وامتداح مزاياهم والتعجب اليهم ، والتقرب إلى مقامهم بأحسن وأبرع صورة .

وأنواع المديح كثيرة ، فهناك مديح الخلفاء والملوك ، ومديح الوزراء والأمراء ، ومديح القواد والولاة ، ومديح العلماء والأدباء ، ومن المدح مديح الأوطان والبلدان وغيرها . وبواعث المديح متعددة ، فقد تدفع الشاعر عاطفة الإعجاب الصادق والايان العميق فيتحدث بصدق وأصالة ، وقد تدفع الشاعر إلى المديح الهدايا والأموال أو السياسية ، أو التعصب للقبيلة ، أو الدفاع عن دين من الأديان .

ولو تتبعنا المديح في العصر العباسي الأول طال بنا الحديث وتشعب ، ولكن يهمننا من هذا الغرض الواسع المديح الإسلامي الذي يظهر عليه أثر الإسلام ، وتبدو فيه الصفات الإسلامية الحميدة ، والأخلاق التي حث الإسلام على التحلي بها ، ونعني بذلك المديح الذي يصور الخليفة في تمسكه بأهداب الإسلام ، وحرصه على شئون الرعية وشجاعته في الدفاع عن حوزة الإسلام ، ويصور القائد بشجاعته المؤمنة وتضحيته بأعز ما يملك في سبيل الله ، ويصف جيوش الإسلام وهي تكبر وتهلل ، وترحف بثبات لنشر العدل والسلام على بقاع المعمورة .

ونعني بالمديح الإسلامي ذلك المديح الذي يصور الايمان العميق ، والعفة والمروءة والصدق والأمانة ، والسماحة والشجاعة وغيرها من الصفات السامية التي تثير في نفوسنا حب التصك بالفضيلة وكراهية الاتصاف بالريذيلة .

وقد صور لنا المديح الإسلامي في جميع عصوره فترات تاريخنا المجيد ، الحافل بالايان والبطولة والعلم والحضارة ، وصور زعماء الإسلام في بطولتهم وإيمانهم وكرمهم وعلو همتهم ، فكان المديح الإسلامي أوسع الأغراض الإسلامية في الشعر العربي ، وصار سجلاً لحوادث التاريخ وصفات الرجال .

وفي العصر العباسي الأول كان المديح امتداداً لما سبقه من العصور ، ولا ننكر حدوث التطور والتغيير في شكل المديح ومضمونه ، إلا أن صفات الكمال هي هي لم تتغير ، ومزايا المدوح لم تتبدل وإن اختلف الناس في عصر من العصور على صفة من الصفات هل تعتبر من الصفات التي يمدح بها الناس أم لا ؟ وهذا الاختلاف يزول عندما نقول ان طريقة الشعراء تختلف في عرض صفات المدوح ، كما تختلف في أسلوب تصويرها لهذه الصفات وتقديم بعضها على بعض ، أو إهمال جانب منها والاهتمام بجانب آخر من تلك المزايا والخلال .

ويعتبر المديح غرضاً رئيسياً من الأغراض التي اهتم بها الشعراء في العصر العباسي الأول ، بل إن المديح يشكل معظم دواوينهم ، وقد نظم فيه أعلام الشعراء كأبي تمام وشار وأبي العتاهية ومسلم بن الوليد وعلي بن الجهم وغيرهم ، ومدح الشعراء الخلفاء والوزراء والقادة والعلماء ، ومدحوا النبي صلى الله عليه وسلم ، كما أشادوا بأهل بيته وبكوا قتلهم .

فما هي المعاني الإسلامية التي أوردتها الشعراء في مديحهم ؟ وما هي الأشواق التي صوروها ؟ وما هي العواطف التي دفعتهم إلى المديح ؟

وأول أنواع المديح مديح الرسول صلى الله عليه وسلم - الذي ضرب أروع الأمثلة في الشجاعة والصبر حتى استطاع تبليغ رسالة الإسلام على أتم الوجوه ، كما اتصف بصفات الكمال ، فكان بذلك قدوة للبشر أجمعين ، فلا ريب أن يحظى بتقدير الشعراء وثنائهم العاطر على سيرته ، وإبرازهم لبطولته ، وسماحة أخلاقه وسمو رسالته التي حملها بكل صدق وأمانة .

وقد مدح الشعراء النبي - صلى الله عليه وسلم - منذ فجر الإسلام إلى اليوم ، وسيبقى المثل الأعلى والقدوة الحسنة في أخلاقه وصفاته ، وستظل رسالته ينبوع الصافي الذي ينهل منه البشر جميعاً .

وقد كان حسان بن ثابت من أوائل الذين مدحوا النبي - صلى الله عليه وسلم - ودافعوا

عن رسالته ، ووصفوا مزاياها ، لأنها طريق الخير والنور والسلام .
 واستمر الشعراء بعد حسان ينظمون القصائد ، ويبدون فيها الاعجاب والاحترام لهذا
 الرجل العظيم ، ويمددون صفات الرسول - صلى الله عليه وسلم - الخلقية والخلقية ،
 ومضوا يصورون معجزاته ، ويدعون إلى الاقتداء به والتخلق بأخلاقه ، ومزجوا ذلك بتصوير
 حال المسلمين في عصورهم المختلفة ، وما أصابهم من التفكك والضعف ، ويشكون ذلك إلى
 النبي - صلى الله عليه وسلم - داعين إلى لَمَّ الشمل والتمسك برسالة الاسلام ، ولم يخل
 ديوان شاعر مسلم من مدح الرسول - صلى الله عليه وسلم - مع اختلاف في الكم والكيف ،
 واختلاف في التدين أو عدمه .

ومن شعراء العصر العباسي الأول الذين مدحوا النبي صلى الله عليه وسلم ، أبو العتاهية
 الذي يسلم على قبره ، ويشيد باصطفاء الله له ، وأن الله هدى به البشرية ، وأنقذها
 من الضلال ، وكان (ص) مفتاح رحمة للعالمين ، ومع هذا فهو بشر ، يموت كما يموت الناس
 يقول أبو العتاهية :

سلام على قبر النبي محمد	نبي الهدى والمصطفى والمؤيد
نبي هدانا الله بعد ضلالة	به ، لم نكن لولا هداه لنهتدي
فكان رسول الله مفتاح رحمة	من الله أهداها لكل موحـد
وكان رسول الله أفضل من مشي	على الأرض إلا أنه لم يخلـد (١)

أما دعبل الخزاعي (٢) - أحد شعراء الشيعة - فيدعو بالسقيا لقبر النبي - صلى الله
 عليه وسلم - ويصلي عليه صلاة لا تعداد لها ويقول :

سقى الله قبراً بالمدينة غيـثه	فقد حلّ فيه الأمن بالبركات
نبي الهدى صلى عليه مليكه	وبلغ عنا روحه التحفـات
وصلى عليه الله ما ذرّ شارق	ولا حـت نجوم الليل مبتـدرات (٣)

- (١) ديوان أبي العتاهية : ١١٦ .
 (٢) هو دعبل بن علي بن رزين الخزاعي ، شاعر هجاء ، يثبني لعلي وآل بيته أصله من الكوفة
 ولد سنة ١٤٨ هـ وأقام ببغداد ، ثم رحل إلى مصر وتوفي ببلدة تدعى " الطيب " (بين واسط وخورستان) سنة ٢٣٥ هـ ، وله ديوان شعر مطبوع . انظر في ترجمته
 وأخباره : الأغاني (ساس) : ٢٩/١٨ ، ووفيات الأعيان : ٢٤/٢ ، وتاريخ بغداد :
 ٣٨٢/٨ ، والشعر والشعراء : ٨٤٦/٢ ، ومعاهد التنصيص : ١٩٠/٢ ، والبداية
 والنهاية : ٣٤٨/١٠ . جمع شعره عبد الكريم الأشر بدر مشق ، وعبد الصاحب الدجيلي
 في العراق ، ومحمد يوسف نجم ببيروت .
 (٣) شعر دعبل الخزاعي لعبد الكريم الأشر : ٢٢٩ .

ويصدق القاسم بن يوسف (١) النبي (ص) بأنه خير البرية ، وأنه رسول الله إلى العالمين جميعا ، ورسالته هدم الظلم والضلال :

ألا إن خير بني آدم	نبي الهدى والتقى والكرم
محمد المصطفى والرسو	ل إلى الناس من عرب وعجم
بأحمد أغلق باب الضلا	ل وهدم أركانه فانهدم (٢)

واستمر المديح الجهنوي بعد العصر العباسي الأول ، وواصل الشعراء تمجيدهم لرسالة النبي (ص) وصبره على تبليغ الرسالة . ويرددة البوصيري ذائعة شهرة ، وقد عاش في القرن السابع الهجري ، وفي العصر الحديث نظم البارودي مديحا للنبي (ص) كما نظم احمد شوقي المهزية النبوية ونهج البرده .

ونحس في المدائح النبوية صدق العاطفة عند الشعراء على وجه العموم ، إذ ليس هناك دافع مادية وراء هذا المديح ، وإنما كانت عواطف الشعراء تشعر بعظمة الرسول (ص) فتنتقل قرائعهم معبرة عن مشاعرهم المؤمنة ، التي ترى في النبي (ص) أعظم رجل عرفته البشرية ، وترى في رسالته الكمال والوفاء بحاجة البشر في كل زمان ومكان .

وكانت نكبة علي كرم الله وجهه ، وما تبعها من مطاردة لآل بيته ، وما حل بهم من القتل ثان ذلك دافعا لكثير من الشعراء إلى مديحهم وبكاء مقاتلهم ، وهالغ بعض الشعراء في ذلك حتى أخرجوا عليا وآل بيته من مستوى البشر أحيانا ، ولا يستطيع أحد أن ينكر مكانة آل البيت وفضلهم ودفاعهم عن الاسلام ، وقربهم للرسول صلى الله عليه وسلم ، ومع ذلك فالمبالغة التي وردت في مديحهم وراثتهم غير مقبولة في أكثر الأحيان .

ومعروف ما حصل للعلويين في العصر الأموي من الظلم والتقتيل ، ثم ما حدث من صراع بين العباسيين والعلويين حول الخلافة ، وأيهما أحق بها ، إلا أن العباسيين استطاعوا القضاء على العلويين ومنافستهم ، واستمر الشعراء في العصر العباسي يتشيعون لعللي وآل بيته ، ويترحمون على قتلاهم ، ويشيرون الأسى والحزن بما يصفونه في قصائدهم

(١) هو القاسم بن يوسف بن القاسم بن صبيح ، المجلي بالولاء ، أبو محمد من أهل الكوفة ، وهو أخو احمد بن يوسف الكاتب (وزير المأمون) ، توفي سنة ٢٢٢ هـ وانظر في ترجمته : الأوراق للصولي : ١٦٣ ، والاعلام : ٢٢١٦ .

(٢) الأوراق : ١٩٣ .

من الظلم الذي نزل بهم ، وانتزاع الخلافة منهم مع أنهم أحق بها من العباسيين في نظر الشيعة ، ومن أشهر الشعراء الذين تشيعوا لآل البيت دعبل الخزاعي والسيد الحميري ومنصور النمرى وديك الجن ، وقد وردت في أشعار هؤلاء وغيرهم قصائد رائعة وأبيات إسلامية تتصف بالاعتدال وعدم المخالاة .

ولنستمع الى دعبل الخزاعي وهو يمدح علياً - كرم الله وجهه - ويشيد ببطولته عندما نام في فراش النبي صلى الله عليه وسلم - ، يقول :

وهو المقيم على فراش محمد حتى وقاه كائداً ومكيدا
وهو المقدم عند حومات الوفي ما ليس ينكر ، طارفاً وتليداً (١)

أما مديح الخلفاء والوزراء والقواد فهو أوسع أنواع المديح الاسلامي ، بل هو أوسع أنواع المديح جميعاً ، ويحتل مكانة كبرى في دواوين الشعراء في مختلف العصور ، ولا عجب في ذلك لأن الشعراء يندفعون وراء المال والمنصب ، ويحبون التقرب إلى ذوي الجاه والسلطان ، وقد يدفعهم إلى المديح الأعجاب بالمدوح وما يتصف به من أخلاق ، وما قام به من أعمال .

وفي العصر العباسي اتسمت رقعة المديح بوجه عام ، وكان تشجيع الخلفاء والوزراء لا تحده حدود ، فقد نثر الذهب في حجر الشعراء ، ونالوا ما لا يحصى من العطايا والهبات ، فتزاحم الشعراء على أبواب الخلفاء وذوي الجاه من وزراء وقواد وولاة ، وذلك أملاً في نيل العطاء والتقرب إلى المدوح .
ونظم الشعراء في العصر العباسي مئات القصائد في مديح الخلفاء ومن حولهم ، فكان من هذه القصائد ما هو جيد ومنها ما هو ردي ، وكان بعضها صادقا ، وأكثرها متلصق مجامل ، ولئن الشعراء استغلوا طاقاتهم الفنية لتفطية ضعف العاطفة في مدائحهم .

وفي تحديدنا لمفهوم الشعر الاسلامي قلنا إن ما يهمننا في دراستنا للاتجاه الإسلامي هو ما قيل ، لا من قال ، فإذا ظهرت على القصيدة الروح الإسلامية دخلت في الموضوع بغض النظر عن صدق العاطفة أو كذبها ، وليس معنى هذا أننا ننكر دور العاطفة الصادقة في قوة الشعر وجماله ولكننا لا نستطيع الجزم بصدق الشاعر أو كذبه في مديحه

ثم لو استطعنا ذلك فان ما يهمننا هو تلك النماذج للشعر الإسلامي التي تصورها
الفضيلة ، وتشيد بالأخلاق الكريمة ، وتضفي على الممدوح صفات المسلم من شجاعة
وأمانة وصدق ، يهمننا إذاً تلك النماذج الإسلامية التي تعطي للشاب المسلم صورة
لرجالنا الأقدان ، وتشير في نفسه الحماسة الإسلامية ، وتدعوه إلى الاقتداء بصفات هؤلاء
الأبطال .

ولا بد لنا في هذا المقام من إشارة سريعة إلى ما أصاب قصيدة المديح من تطور
على يد الشاعر العباسي ، وقد سبق تفصيل التطور الذي حدث في أغراض الشعر
العباسي جميعها عندما تحدثنا عن تطور الشعر العباسي ، واختصار فقد حاول
الشعراء العباسيون الخروج على نظام قصيدة المديح ، وذلك بحذف المقدمة الغزلية
او استبعاد وصف الأطلال والرسوم ، واستبدالها ببعض الشعراء بوصف الخمر ، أو وصف
القصور والطبيعة ، وكان زعيم هذا الاتجاه أبو نواس . ومع هذا فأغلب قصائد المديح
في العصر العباسي مبدوءة بالمقدمة الغزلية ووصف الأطلال .

واتجه الشعراء في العصر العباسي إلى نعت الممدوح بالفضائل المعنوية ، واستبعدوا
الفضائل الحسية كالتشبيه بالأسد أو غيره من الحيوانات ، كما صور الشعراء في هذا
العصر المثل الخلقية صوراً حية ناطقة ، واستنبطوا معاني طريفة في الساحة والكرم
والحلم والمروءة والشجاعة ، وجسموا هذه المعاني في الممدوحين تجسيميا قويا .

كما سجل الشعراء في مدائحهم وقائع العصر وحوادثه ، واستقصوها وأبدعوا في
وصفهم لها ، وكانت الحروب بين الدولة الإسلامية وبين أعدائها من الترك والبيزنطيين
مجالاً واسعاً لخيال الشعراء وأبداعهم ، فأثاروا الحماسة الإسلامية للدفاع عن ثغور
المسلمين ، وحفزوا الهمم ، وصوروا البطولة والتضحية والانتصار أروع تصوير ، وبذلك أصبحت
قصائد المديح أشبه بوثائق تاريخية يختلف أسلوبها عن أسلوب التاريخ الملول .

وكان بشار وأبو نواس وأبو تمام وعلي بن الجهم ومسلم بن الوليد وأبو العتاهية
من أبرز الشعراء في هذا العصر ، واحتل المديح مكانة بارزة في دواوينهم ، كما كان المهدي
والرشيد والمأمون والمتوكل من أبرز الخلفاء الذين تغنى الشعراء بمدائحهم ، وارتفعت
أصواتهم بترديد صفاتهم الحميدة وأعمالهم الجليلة .

ويحق لنا أن نتساءل هنا : هل نعتبر كل شعر يضاف على الممدوح صفات الكرم أو الشجاعة أو علو الهمة مديحا إسلاميا ؟ الجواب : لا ، لأننا نريد بالكرم كرم المسلم الذي يرجو ثواب الله ، وكرم الخليفة الذي ينشر العدل بين رعيته لا كرم المباشرة والمفاخرة وتضييع الأموال بدون حساب ، ونريد بالشجاعة شجاعة المسلم في سبيل الله ، وشجاعة القائد ضد أعداء الإسلام ، وشجاعة المؤمن الذي يريد إعلاء كلمة الله ورفع راية المسلمين ، ولا نريد شجاعة المتهور المفرور من أجل عصبية قبلية ، ولا نريد شجاعة الظالم الذي يريد إزلال غيره وإظهار قوته أمام الآخرين .

وعلى هذا فليس كرم الشعر يمدح بالشجاعة والكرم داخلا تحت مفهوم الشعر الاسلامي لأن الشعراء كانوا يصفون صفة الكرم والشجاعة على مدحهم قبل الإسلام .

وكانت للخليفة مائة عظيمة في نفوس المسلمين ، لأنه المسؤول الأول عن شؤون الرعية ، وهو خادم الإسلام الذي تجب طاعته ، وقد حرص الشعراء في مدائحهم على إبراز الخليفة بمظهر الرجل المسلم الحريص على مصالح المسلمين ورفعته الإسلام . وكان الإسلام قطبا تدور حوله معاني الشعراء في مديحهم للخلفاء ، فقال الخليفة أعز الله الإسلام وأذل الشرك ، وارتفعت راية المسلمين ، والخليفة يطبق تعاليم الإسلام ويعدل بين رعيته ، ويرفع الظلم عن المظلوم ، ويعطي كل ذي حق حقه ، وهيبة الخليفة ترتعد لها فرائض المشركين ، والخليفة متواضع لله ، فقد برسله الأمين .

هذا إلى جانب الصفات الذاتية فالممدوح كريم النفس عالي الهمة ، راجح العقل ، له دراية بالسياسة وتدبير الأمور ، يبتسم عند لقاء الخطوب ، ويحلم عند الفضب . تلك هي أهم المعاني والصفات التي تناولها الشاعر العباسي في مديحة للخلفاء ، وصاغها بأسلوب رائع ، وأبدع في تصويرها وإبرازها للسامعين .

ولنتراء تلك الروائع الإسلامية في المديح تعبر عن نفسها وعن معانيها ، فهي أبلغ في التعبير والبيان ، فهذا بشار الأيمى المهدي فيقول :

- (١) هو بشار بن برد بن يرجون ، من موالى بني عقيل ، ولد بالبصرة ضريرا سنة ٩٢ هـ ، زعيم الشعراء المحدثين ، مدح الخلفاء والوزراء العباسيين ، وهاجى حماد عجرد واختلف إلى حلقات المتكلمين ، وكان يقول غزلا مكشوبا ، وقد قتله المهدي لزندقته ضريا بالسياط سنة ١٦٨ هـ ، ودفن بالبصرة ، وانظر ترجمته وأخباره : الأغاني : ١٣٥/٣ وطبقات الشعراء : ٢١ ، والشعر والشعراء : ٧٥٧/٢ ، ووفيات الأعيان : ٢٤٥/١ ، وتاريخ بغداد : ١١٢/٧ ، والاعلام : ٢٤/٢ . وانظر أيضا بشار لكل من ابراهيم المازني وعمر فروخ وطه الحاجري والعقاد . وله ديوان مطبوع يتكون من ثلاثة أجزاء شرحها ونشرها محمد بن الطاهر عاشور .

والله أصلح بالمهدى فاسدنا
داوى صدورهم من بعد ما نفلت
ولم يدع أحدا ممن بنى وطفى
بل لم يكن لجمع المشركين به
سدّ الثغور بخيل الله ملجئة
سرنا إليه وكان الناس قد فسدوا
كما يداوى بدهن الصرّة العند
إلا تناولهم بالكف فاحتصروا
ولا بشيئته حول ولا يسدد
وفي الخيول وفي فرسانها سدد (١)

فالله أصلح الفساد بالمهدى الذى قضى على الطغاة والبغاة ، وحى ثغور المسلمين
من كل معتد أئيم .

ويشار أدرك أواخر الدولة الأموية ، ومدح يزيد بن هبيرة ، كما أدرك أوائل الدولة
العباسية فمدن المهدى والبرامكة ومسلم بن قتيبة الباهلي .

أما أبو نواس فقد مدن الرشيد والبرامكة ، ونادم الأمين ومدحه ، ثم رثاه ، ونجد
أبا نواس يردد المعاني الاسلامية في مدائحه للخلفاء ، ويلبسهم خلا من القداسة
الدينية ، والأخلاق الاسلامية ، فاذا قرأت مدائحه تبادر اليك أن الشاعر صادق في
عاطفته عامل بما يقول ، ولكنه نان لا يعرف للدين حقه ، ولا للخلق قيمته في تثير من
الأحيان ، وهكذا الشعراء يقولون ما لا يفعلون ، والذى يهمننا من شعر أبي نواس هو
ذلك المديح الاسلامي الذى ردة بأسلوب سهل رصين ، وبمعان اسلامية رائعة ، فهو
يمدح الرشيد بحسن التدبير والسياسة ، فالرعية مطمئنة لقيادته لأنه يخاف الله ويراقبه :

تبارك من ساس الأمور بعلمه
نعيش بخير ما انطوينا على التقى
إمام يخاف الله حتى كأنه
وفاضل هارونا على الخلفاء
وما ساس دنيانا أبو الأمناء
يوئل روءياه صباح مساء (٢)

ويستعطف أبو نواس الرشيد عندما سجنه ، ويذكر أن الله أعز به الاسلام ، وحصنه
وأخاف أهل الشرك ، ويبدع أبو نواس في وصف غزو الرشيد للروم ، وجعل هذا
الغزو بمثابة زيارة يقوم بها واصل لقاطع ، يقول :

براك الله للاسلام عزاً وناصراً
لقد أرهبت أهل الشرك حتى
تزورهم بنفسك كل عام
ولو شئت اكتفيت الى نعيم
وحصنا دون بيضته حصينا
تركتهم وما يتدمروننا
زيارة واصل للقاطعيننا
وقاسى الأمر دونك آخروننا (٣)

(١) الديوان : ٢٨٦/٢ . (٢) ديوان أبي نواس : ٤٠٢ .

(٣) الديوان : ٤٠٣ .

ثم يبالغ أبو نواس في وصف خوف الأعداء من الرشيد ويقول :

لقد اتقيت الله حق تقاته وجهدت نفسك فوق جهد المتقي
وأخفت أهل الشرك حتى أنه لتخافك النطف التي لم تخلق (١)

وهذه بلا شك مبالغة غير مقبولة ينبو عنها الذوق السليم .

أما صريح الفواني مسلم (٢) بن الوليد فقد مدح الرشيد أيضا ، وأشاد بانتصاراته على الروم ، ومدح القائد يزيد بن يزيد الشيباني الذي قضى على ثورة الوليد ابن طريف الخارجي ، كما قضى على ثورة يوسف البرم الذي ثار في عهد المهدي بخراسان ونجد تلك المعاني الاسلامية التي أوردنا طرفا منها تتردد في شعر مسلم ، من حماية الخليفة للاسلام ودفاعه المجيد عن ثغوره ، يقول مسلم في مدح الرشيد :

خليفة الله إن النصر مقتصر عليك مذ أنت ميلو ومختبر
أعددت للحرب سيفا من بني مطر يمضي بأمرك مخلوعا له الصذر
لاقي بنو قيصر لما هممت بهم مثل الذي سوف تلقى مثله الخزر
لقد بعثت إلى خاقان جائحة خرقاء حصاء لا تبقي ولا تذر (٣)

(١) الديوان : ٤٠١ .

(٢) هو مسلم بن الوليد ، الانصاري بالولاء ، ولد بلكوفة سنة ١٤٠ هـ ونشأ بها ، ثم انتقل الى البصرة ، لقبه الرشيد بصريح الفواني بسبب بيت قاله ، شاعر غزل أول من أكثر من البديع في شعره ، وتبعه الشعراء في ذلك ، كان على معرفة واسعة بالشعر الجاهلي والاسلامي ، مدح الرشيد والبرامكة ، ونال عطاياهم ، كما مدح داود بن يزيد ويزيد بن يزيد الشيباني ، تولى مظالم جرجان الى أن مات بها سنة ٢٠٨ هـ ، له ديوان مطبوع حققه سامي الدهان وطبع بدار المعارف بصر . انظر ترجمته وأخباره :

الشعر والشعراء : ٨٣٢/٢ ، وطبقات ابن المعتز : ٢٣٥ ، وتاريخ بغداد :

٩٣/١٦ ، ومعاهد التنصيص : ٥٥/٣ ، والاعلام : ١٢٠/٨ ، وانظر صريح

الفواني لمحمد جميل سلطان ، ومسلم بن الوليد لغواذ ترزى (طبع بيروت) .

(٣) ديوان مسلم : ٢٥٤ .

ونقف طويلا عند أبي تمام (١) شاعر الحماسة الاسلامية الأول في هذا العصر الذي صاغ بدرر نظمه أروع صفحات المجد والبطولة الاسلامية ، وصور معارك المسلمين ، وشجاعة قوادهم وهزيمة أعدائهم أروع تصوير .

وإذا كنا فيما مضى قد ألمنا باليسير من الأشعار التي تصور بطولات المسلمين وتصف معاركهم ، وتشيد بتضحية خلفائهم من أجل الدفاع عن الاسلام ، إذا كنا فعلنا ذلك فاننا سنرى أبا تمام خير من يمثل هذا الاتجاه الاسلامي في المديح ، والذي يحق لنا أن نسميه حماسة إسلامية أيضا .
وروائع أبي تمام في المعتصم والمأمون من الخلفاء ، وفي خالد بن يزيد ومحمد بن يوسف الثغرى وأبي دلف العجلي من القواد ، هذه الروائع تعتبر من درر الشعر العربي على الإطلاق .

وقد كانت انتصارات الخلفاء والقواد في حروبهم تهز شاعرية أبي تمام هزاً عنيفاً ، فيشدو متغنيا بتلك الفتوح ، ومفتخراً بقادتها الشجعان ، وجنودها الأشاوس ، متضرعا الى الله أن يكلاً هؤلاء بعنايته ، فهم حماة الاسلام ودع الأمة الواقي .

(١) هو حبيب بن أوس الطائي ، أحد أمراء البيان العربي ، ولد بقرية " جاسم " قرى حوران بسوريا سنة ١٩٨ هـ تقريبا ، رحل الى مصر ، ومنها استقدمه المعتصم الى بغداد فأجازه وقدمه على شعراء عصره ، ويتميز أبو تمام بذكاء حاد وذهن وقاد وبديهة حاضرة ، ومن مؤلفاته ديوان الحماسة ، تولى بريد الموصل ، ولم يتم سنتين حتى توفي بها سنة ٢٣١ هـ . انظر في ترجمته وأخباره وأشعاره :

الأغاني (دارالكتب) : ٣٨٣/١٦ ، وماهد التنصيص : ٣٨/١ ، وتاريخ بغداد : ٢٤٨/٨ ، وانظر أيضا : الموازنة بين الطائيين للآمدي ، وأخبار أبي تمام للصولي ، وهبة الأنام فيما يتعلق بأبي تمام للبديمي ، وأبو تمام الطائي لنجيب البهبهتي ، وأبا تمام لعمر فروخ . وقد طبع ديوانه عدة طبعات أهمها طبعة دارالمعارف بشن الخطيب التبريزي وتحقيق محمد عبده عزام .

وقد وجد أبو تمام من انتصارات المأمون والمعتصم على الروم ، وقضاء القواد على بابك الخرمي ومازيار بن قارن مادة هية لتلك الملاحم التي سجلها باعتراز وفخر ، وساعده على ذلك خياله الواسع وشاعريته الفذة وعاطفته الجياشة .

ويطول الحديث لو استعرضنا روائع أبي تمام جميعها ، وما فيها من معان رفيعة وصور مبتكرة ، وسنعرض بعض هذه الروائع عندما نتحدث عن مدح القواد والوزراء كما سنشاهد نماذج منها عند الحديث عن الرثاء .
ويكفي نموذجاً لمدائ أبي تمام الاسلامية ملحمة الرائعة في مدح المعتصم عندما فتح عمورية ، والتي سجل فيها انتصاره العظيم ، وهو في هذه القصيدة مبتهج ابتهاجاً لا حد له بهذا الفتح المبين ، وقد استهل قصيدته بالسخرية والاستهزاء بالمنجمين ، وما زعموه من أن المعتصم لن يفتحها :

السيف أصدق أنباء من الكتب	في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائف لا سود الصحائف في	متونهن جلاء الشك والريب
والعلم في شهب الأركان لامعة	بين الخميسين لا في السبعة الشهلي
أين الرواية ؟ أم أين النجوم وما	صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
لو بيئت قط أمراً قبل موقمه	لم تخف ما حل بالأوثان والصلب (١)

ويعبر عن فرحته بهذا النصر المؤزر ، وما حققه للمسلمين من أمان وآمال وما حدث للروم من هزيمة وهوان فيقول :

فتح الفتوح تعالى أن يحيط به	نظم من الشعراء أو نشر من الخطب
فتح تفتح أبواب السماء له	وتبرز الأرض في أثوابها القشب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت	عناك المنى حفلا معسولة الحلب
أبقيت جد بني الاسلام في صعد	والمشركين ودار الشرك في صيب (٢)

(١) الديوان : ٤٠/١ ، ٤٥ ،

(٢) الديوان : ٤٧/١ وما بعدها .

ثم يصور أبو تمام استعصاء عمورية على ملوك الفرس والتباينة ، حتى كأنها تنتظر هذا الفاتح العظيم ، ويبدع في وصف حريقها وخرابها ويقول :

لقد تركت أمير المؤمنين بها	للنار يوماً ذليل الصخر والخشب
غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحي	يشله وسطها صبي من اللهب
حتى كأن جلابيب الدجى رغبت	عن لونها أو كأن الشمس لم تغيب
ضوء من النار والظلماء عاكفة	وظلمة من دخان في ضحي شحِب
فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت	والشمس واجبة في ذا ولم وتجِب (١)

ويصل أبو تمام إلى حدّ المبالغة في وصفه لشجاعة المعتصم وخوف الأعداء منه ، فالمعتصم يتقدمه جيش من الرعب ، والمعتصم بمفرده يَكُونُ جيشاً جراراً ، واستمع إليه في هذا يقول :

لم يفز قوماً ولم ينهد إلى بلد	إلا تقدمه جيش من الرعب
لولم يقد جحفاً يوم الوقي لفدا	من نفسه وحدها في جحفل لجب (٢)

ويختتم أبو تمام ملحمة العظيمة بالدعاء للمعتصم بأن يجزيه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء ، ويقرن بين عمورية وغزوة بدر الكبرى ، لأن كلاهما كانت عزاً للمسلمين ونصرة للإسلام .

وعاطفة الشاعر الدينية مشبوبة في جميع أبيات القصيدة ، فهو فرح متحمس ، شاهد المعركة بأب عينه ، ورأى جحافل الأعداء تتبدد ، ورايات الإسلام تُرفرف .

والمدايح الإسلامية في هذا المعصر يصعب عرضها ، لأن دواوين الشعراء مملوءة بمثل هذه القصائد وما فيها من المعاني الإسلامية ، وساعد على ذلك تشجيع الخلفاء لشعراء المديح ، فانكبوا من كل حدب وصوب ، ودبجوا قصائد المديح - إن صدقا وإن كذبا - وأطالوا فأتوا بالجيد الرائع ، وبالنفوس ووصلوا حد الاسفاف .

(١) الديوان : ٥٣/١

(٢) الديوان : ٥٩/١

وطرق أبواب الخلفاء شعراء آخرون ، ومدحوا ونالوا العطايا ، وكان منهم علي بن الجهم الذي مدح المتوكل ، ومروان بن أبي حفصة الذي مدح المهدي والرشيد ، وأشجع السلمي الذي مدح الرشيد أيضا ، وقد ردد هؤلاء في مدائحهم تلك المعاني الإسلامية السابقة ، والمثل العليا التي يتصف بها المدح .

وعلي بن الجهم شارك في تسجيل انتصارات المعتصم ، وأشاد بقضائه على الثائرين ضد الإسلام ، ففي القضاء عليهم عز ونصر للإسلام ، يقول :

وليت فلم تدع للدين ثأراً	سيوفك والمثقة الدوامي
نصبت المازهار على سحوق	وبابك والنصاري في نظام
مناظر لا يزال الدين منها	عزيز النصر ممنوع المرام
وعمورية ابتدرت اليها	بوادر من عزيز ذي انتقام (١)

ومروان بن أبي حفصة (٢) أحد شعراء الدعوة العباسية - يمجّد انتصارات الرشيد على الروم ، وحمانيته لشفور المسلمين ، ويحتز بأن الرشيد أجبر الروم على دفع الجزية عن يد وهم صاغرون ، فهو يقول :

وسدت بهارون الشفور وأحكمت	به من أمر المسلمين المرائر
وما انفك معقوداً بنصر لواؤه	له عسكر عنه تشظى العساكر
وكل ملوك الروم أعطاه جزية	على الرغم قسراً عن يد وهو صاغر (٣)

(١) ديوان علي بن الجهم: ٨-١١ .

(٢) هو مروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة ، يكنى بأبي السمط ، نشأ في العصر الأموي باليمامة حيث منازل أهله ، وأدرك العصر العباسي فقدم ببغداد ، ومدح المهدي والرشيد ، كما مدح معن بن زائدة الشيباني ، وكان مولده سنة ١٠٥ هـ وتوفي ببغداد سنة ١٨٢ هـ . وانظر في ترجمة مروان وأخباره : الأغاني : ٧١/١٠ ، ووفيات الأعيان : ٢٧٦/٤ ، والشعر والشعراء : ٧٦٣/٢ ، ومعجم الشعراء : ٣٩٦ ، وتاريخ بغداد : ١٤٢/١٣ ، والاعلام : ٥٩/٨ ، وتاريخ الطبري : ٣٤٧/٨ .

(٣) الطبري : ٣٤٧/٨ .

وكما تزاخم الشعراء على أبواب الخلفاء ، ومدحهم فنالوا عطاياهم ، فقد كان للقواد والوزراء نصيب وافر من هذه الأشعار ، وحظ من التفني بالبطولات والأمجاد والأخلاق الحميدة ، وكان الشاعر يراعي منزلة المدوح فيمدح الخليفة بحسن تدبير أمور الدولة وتطبيق شريعة الاسلام ، ويمدح الوزير برجاحة العقل وحكمة السياسة ويطيل عن الشجاعة ، والبطولة وغرض معام القتال إذا كان المدوح قائدا .

ومن أشهر الوزراء العباسيين الذين تفنى الشعراء بمدحهم البرامكة ، فقد كانوا يجزلون العطاء ، ويفدقون على الشعراء سيلاً من الأموال ، حتى نافسوا الخلفاء في بعض الأحيان ، ومن أشهر شعراء البرامكة أبا ن بن عبد الحميد اللاهقي وأشجع السلمي وسلم الخاسر ، ومن الوزراء أيضا الحسن بن سهل والفضل بن سهل ومحمد بن عبد الملك الزيات الذين كثرت المدائى فيهم .

وكانت قصائد المديح للوزراء تطبخ بالطبخ الإسلامي أحيانا ، فيضفي الشاعر على الوزير صفة البطولة والدفاع عن ديار الإسلام ، يقول مروان ابن أبي حفصة في مدح الفضل بن يحيى :

أذلت مع الشرك النفاق سيوفه	وكانت لأهل الدين عزاً مؤيدا
أبحت جبال الكابلي ولم تدع	بهنّ لنيران الضلالة موقدا
فأطاعتها خيلا وطئن جموعه	قتيلاً ومأسوراً وفلا مشردا (١)

وقد اشتهر معن بن زائدة من الولاة بثرة عطاياه وكثرة مداحه ، كما اشتهر من القواد عمر بن الصلاء ويزيد بن يزيد الشيباني ، وخالد بن يزيد بن يزيد وأبودلف المجلي ومحمد بن يوسف الثغرى .

وحظي هؤلاء القادة بتقدير الشعراء واعجابهم ، فراح الشعراء يصورون بطولاتهم أروع تصوير ، ويسجلون آيات الاعجاب بانتصاراتهم ، فهم الشجمان والكماة ، وهم حماة الإسلام الذين أذاتوا العدو كأس الذل والهوان ، ويصورون في مدائحهم المعارك الحربية ، وما فيها من غبار كالسحب وسيوف كالبرق ، وجثث مترامية وغير ذلك من الصور الرائعة حتى تنقلك إلى أرض المعركة وأنت تقرأ هذه القصائد .

وأفعمت القسائد في مدين القواد بالروح الاسلامية ، وعمت أبياتها نعمة الدفاع عن الاسلام والذب عن حياضه ، وفي ذلك يقول أبو تمام في مدح أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري :

يا فارس الإسلام أنت حميته	وكفته كلب العدو المعتدى
ونصرته بكتائب صيرتهما	نصبا لعورات العدو بمرصدي
أصبحت مفتاح الثغور وقفلها	وسداد ثلمتها التي لم تسدد
أدركت فيه دم الشهيد وثاره	وفلجت فيه بشكر كل موحد
ضحكت له أكباد مكة ضحكها	في يوم بدر والعتاد الشهيد (١)

ويقول مسلم بن الوليد يمجده بطولة يزيد بن يزيد الشيباني :

أذكرت سيف رسول الله سنته	وأس أول من صلو ومن صام
قطعت في الله أرحام القريب كما	وصلت في الله أرحاما وأرحاما (٢)

وغير هذا كثير من أناشيد التفني بالبطولة والايان ، وأناشيد الحماسة الاسلامية التي سجد بها الشعراء بطولات قادة المسلمين في فترة من أعز فترات تاريخ المسلمين كما سجلوا بها معارك المسلمين ، وصوروا النصر في أجمل صورته ، وصوروا الهزيمة في أبشع صورها ، فأبدعوا في هذا وذاك .

وخلاصة القول في المدي أنه غرض من أوسع الأغراض الإسلامية ، وأكثرها إلاماً بواقع الإسلامية في حروبها وسلمها وأخلاقها ودينها .
وضرب المدي الإسلامي للمسلم أروع الأمثلة في المثل العليا والأخلاق الفاضلة ، كما رسم له طريق الرجولة وسلام المعاني من خلال صفات أولئك العظماء ، كما أثار في نفوس المسلمين الحماسة لدينهم ، والدفاع عن أوطانهم كما دافع هؤلاء وينوا الأمجاد للدولة الإسلامية .

ولا زلنا حتى اليوم نردد تلك الروائع الإسلامية ، وستبقى خالدة تثير الفتوة وتبصث على التضحية والفداء والاخلاص من أجل رفع راية الإسلام والدفاع عن أوطان المسلمين .

(١) ديوان أبي تمام : ١٣٨/٢
(٢) أرحام القريب : يعني بذلك قتله للوليد بن طريف الشيباني ، وكان ابن عمه .

ولا يضير هذه المدائح الإسلامية ضعف العاطفة عند بعض الشعراء كما لا ينقص من قيمتها أن المال كان هدفاً من وراء نظمها ، ذلك لأن العاطفة الدينية تقوى وتضعف ، والمال عصب الحياة لكل إنسان ، والمرء يحب المال حباً جما كما صن بذلك القرآن الكريم ، ويكفي أن الروح الإسلامية ظاهرة على أكثر هذه المدائح .

ومن الملاحظ في أسلوب هذه القصائد القوة والحماس ، لتناسب مقام الخليفة أو القائد ، فالخليفة له هيئته ، والقائد يجب أن تبرز بطولته ، وهكذا . وقد اختار الشعراء لقصائد المديح البحور الطويلة ، والكلمات الجزلة الرصينة والأساليب القوية المؤثرة ، وتلك سميات لا بد منها في المديح فهو مجال الفخر والاعتزاز ، ومكان الإعجاب ورسم البطولات .

وقد آثرت إيمان المدائح التي يتض فيها التعصب للأحزاب السياسية ، أو التي لا تظهر عليها سمة الإسلام حتى لا نخرج عما حددناه لأنفسنا في مفهوم الشعر الإسلامي .

الهجاء والدفاع عن الاسلام

الهجاء ضد المديح ، فن يستهدف ثلب المهجو والسخرية به ، وخط منزلته بين الناس ، كما أن المديح فن رفع منزلة المدون وذلك بنشر صفاته الحميدة ، واطافة صفات قد لا تدون موجودة فيه ، كما أن الهاجي ينشر صفات المهجو القبيحة ، ويبالغ في قبحها ، وقد يضيف صفات فبيحة ليست موجودة فيه .

والهجاء فن من أقدم فنون الشعر العربي دفعت إليه دوافع مختلفة باختلاف الأشخاص والأزمان والمؤثرات العامة .

وقد عرف الجاهليون الهجاء والفخر والمدح ، تلك الأغراض التي تناسب حياة الصراع بينهم ، ولكن الهجاء في الجاهلية أقرب إلى المناظرة والفخر منه إلى الهجاء الحقيقي الذي انتشر في العصر الأموي على يد جرير والأخطل والفرزدق ، ونقائضهم في هذا المجال مشهورة .

وتان الهجاء في العصر الأموي يعتمد على سلب المهجو صفات المدون من كرم وشجاعة ونسب عريق ، وتان الشاعر يهجو صاحبه بالبخل والجبن وضعف النسب ، ودنو الهمة ، وعدم الترفع إلى كسب المعالي ، كما يستهدف الطعن في قبيلة المهجو وأنها قبيلة لا شأن لها ولا سلطان ، ووصل الهجاء في العصر الأموي إلى حد الاقذاع أحيانا .

وفي العصر العباسي كثر الترفز، وعم الرخاء ، واختلطت الدماء والثقافات ، فاتخذ الهجاء مظهراً جديداً ألا وهو الاقذاع والفحش ، وهتك الحرمات وذكر العورات التي حد يترفع عنه صاحب الخلق الكريم .

كما اتجه الهجاء في العصر العباسي إلى الاضحاك والسخرية ورسم صورة مضحكة للمهجو يصورها الشاعر بأسلوب سهل ، فتنتشر بين الناس بسرعة ، ولعل المجون وضعف الوان الديني كانا من أهم الدوافع إلى هذا النوع من الهجاء المقذع الساخر معا ، وهجاء حماد عجرد وغيره أكبر مثال على هذا النوع من الهجاء .

تلك لمحة سريعة عن الهجاء في العصر الأموي والعباسي ، ولكن هل يمكن أن تعتبر الهجاء أو نوعاً من أنواعه غرضاً إسلامياً ؟ وإذا صح هذا الاعتبار فما نوع

الهجاء الذي يدخل تحت قائمة الاتجاه الإسلامي ؟
وقبل أن نجيب على هذا التساؤل لا بد لنا من البحث عن دوافع الهجاء في العصر
العباسي ، ولا بد من معرفة مظاهر هذا الهجاء .

أما دوافع الهجاء فمتعددة مختلفة ، فقد يكون الدافع ثأراً بين شخص وآخر
أو خصومة استفحلت ، أو حسداً من شخص لآخر ، وقد يكون الدافع أيضاً حسب
الشهرة كأن يهجو شاعرٌ شاعراً آخر مشهور ليرتفع اسمه بين الناس ، وقد يدفع التعصب
الديني أو السياسي إلى الهجاء ، وعندما يخيب أمل الشاعر في مدوحه قد يهجو
أحياناً .

ومظاهر الهجاء مختلفة ، فقد يكون نزيهاً يسلب المهجو صفات حميدة كالكرم
والشجاعة ، وقد يكون مقذعا يكشف العورات ، ويتميز بالدعارة والفجور ، وقد يكون
مضحكاً مثيراً للضحك والسخرية والتسلية .

وقد انتشرت في العصر العباسي موجة الهجاء المقذع والساعر لأسباب كثيرة أهمها
انتشار الترف والمجون وضعف الوان الديني ، وبالتالي ضعف الأعراس وهوان الترامات
وان كانت هذه الموجة من الهجاء لم تنتشر إلا بين طبقة من المجان والخلعاء الذين
رفعوا رداء الحياء والكرامة عن وجوههم .

وتعددت في العصر العباسي الملل والنحل المنحرفة ، ووجد أصحاب الأهواء مجالاً
واسعاً للتعبير عن انحرافهم ، وأمر القول بخلق القرآن ذائع مشهور حتى صار عقيدة
رسمية للدولة في عهد المأمون ، والنزاع حول التقدير والجبر والاختيار يرتفع صوته ويعلو
وكان من نتائج هذا أن وقف أهل السنة مدافعين عن مبادئ الدين الحنيف ، واتخذوا
الشعر وسيلة من وسائل الدفاع .

ومما لا شك فيه أن كثيراً من الهجاء في هذا العصر لا يدخل في الاتجاه الإسلامي
لأنه لا يهدف إلى الإصلاح ، ولا يرشد إلى الطريق السوي ، والمهاترات بين الشعراء
وهتاك الحرمات وسلب المهجو صفات الرجولة نزول بالفن الشعري عن هدفه النبيل
من امتاع وإصلاح ، وحتى الهجاء بالزندقة والانحراف لا يُعتبر اتجاهًا إسلامياً في
الهجاء ، لأن المتهم لم يكن زنديقاً ولا منحرفاً في الغالب ، وليس هدف الشاعر من
هجائه الإصلاح ، وحتى لو كان هدفه الإصلاح فان الإصلاح والتوجيه لا يكونان
بهذه الطريقة .

وهذا نكون قد أخرجنا أغلب الهجاء من الاتجاه الإسلامي ، ولم يبق من الهجاء الذي نريد دراسته في هذا البحث إلا ذلك الهجاء الذي يكون دافعه الفيرة على الاسلام ، أو اصلاح الانحراف وبيان الضلال ، وتوضيى الطريق السليم للمنحرفين ، وذلك بأسلوب لا يدخله فحش أو اقداع ، وعلى أن يكون المهجو قد اتصف فعلا بما رمي به ونضرب لذلك مثلا بهجاء من قال بخلق القرآن وبيان ضلاله ، وأن هذا مناف لما نص عليه القرآن الكريم ، وهجاء بعض الفرق الدينية كالتي تقول بوجود الكهين أو التي تنفي ارادة المخلوق وغيرها من الفرق المنحرفة ومن اعتنق هذه المذاهب الهدامة المنافية لمبادئ الاسلام ، وهذا النوع من الهجاء هو الذي يحق لنا أن نسميه هجاء إسلامياً ، كما يحق لنا أن نسميه دفاعاً عن الإسلام ، فالهجاء الذي حددناه والدفاع عن الإسلام غرضان متشابهان ومتشابكان .

وقد وجد الهجاء الإسلامي في العصر العباسي الأول ، وكان من أهم دافعه الانحراف الديني والاستهزاء بقيم الإسلام التي فشت في المجتمع العباسي ، ووجدت سكوتاً من ذوى السلطان ، بل ووجدت تأييداً في بعض الأحيان . وانتشار الفرق الدينية ، وشيوع المحاورات والمناظرات العميقة التي لا طائد تحتها أمر شائع في العصر العباسي حتى اتخذ شكلاً من الفلسفة العميقة التي تريد تحكيم العقل في كل شيء ، وتريد أن ترفع العقل البشرى فوق مستواه ، وراح هؤلاء الفلاسفة يبحثون عن أصل الله والروح وغير ذلك ما هو فوق مستوى عقول البشر .

وكان بديهي أن يوجد رد فعل عنيف من رجال الدين والملتزمين وخاصة الفقهاء والمفسرين والمحدثين ، واضطهاد أحمد بن حنبل ليقول بخلق القرآن ذائع مشهور . وشارك الشعراء في الدفاع عن الإسلام ، ونظموا قصائد في هجاء المنحرفين ، وبينوا ضلالهم وخروجهم عن الطريق الذي رسمه رسول الله (ص) وسار عليه الصحابة رضوان الله عليهم ، كما رد بعض الشعراء على من حاول انتقاص الإسلام والقدح في تشريعاته . ومع هذا فما يدخل في الاتجاه الاسلامي من الهجاء قليل ، وذلك لأننا أبعدنا من الهجاء أنواعاً كثيرة بسبب دافعها المتعددة عن رون الإسلام . والقارىء قد يقول إن الهجاء كان يسلب الصفات الحميدة ، ويثبت الصفات القبيحة يعتبر اتجاهها اسلامياً لأنه يجعل السامع والقارىء يتعد عن هذه الصفات القبيحة والمبادئ الهدامة ، وعلى ذلك ففيه توجيه سليم ، وتحذير للناس من الاتصاف بهذه الصفات المرذولة .

ونقول لمثل هذا القارىء إن طرق التوجيه كثيرة ، وليس منها هذا الطريق الذى يثير البغضاء ، ويكشف عيوباً مستورة ، ويثير الشك في النفوس المؤمنة .

وقد نظم كثير من الشعراء في هجاء المنحرفين والدفاع عن الإسلام ، ولكن ما قيل في هذا قد يكون قليلاً بالنسبة لما قيل في الأغراض الأخرى ، وذلك لانشغال الشعراء بالأغراض التقليدية الأخرى .

ومن الشعراء الذين دافعوا عن الإسلام ، وهجوا أهل الانحراف والضلال شاعر أهل السنة الملتزم (١) علي بن الجهم الذى بدأ الالتزام الديني في أغلب شعره ، ووقف مدافعاً عن الإسلام وعن مذهب أهل السنة ، ومرادنا بالالتزام هنا هو التزام مذهب أهل السنة والجماعة في العقيدة الدينية ، بحيث يعبر الشاعر عن عقيدته الملتزمة بوضوح ، وقد يتعدى ذلك إلى الرد على المنحرفين عن هذا المذهب كما فعل علي بن الجهم الذى عاصر كثيراً من الزوابع الدينية والمذاهب المختلفة ، فوقف يعلن مذهب أهل السنة ، ويدافع عنه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . وهو يقول في إحدى قصائده إن ابن الزيات (٢) يستهزئ بسنن النبي (ص) ويجد في أطفائها ، كما أن أحمد بن أبي دواد عطل مجالس الله ، حتى لا يحدث فيها بالاسناد ، وأطفاً مصابين السنة ، وأوثق المحدثين في الأصفاد ، وازدادة إلى ذلك فقد أتى بالبدع وأفسد أمر الإسلام ، يقول :
علي عن ابن أبي دواد لما فلج :

فرحت بمصرعك البرية كلها	من كان منهم موقناً بمصاد
كم مجلس لله قد عطلته	كي لا يحدث فيه بالأسناد
ولكم مصايح لنا أطفأتها	حتى يحيد عن الطريق الهدى
ولدم كريمة معشر أرطتها	ومحدث أوثقت في الأصفاد
فدق الهوان معجلاً وموئلاً	والله رب العرش بالمرصاد (٣)

(١) علي بن الجهم لعبد الرحمن الباشا : ١٧٣ .

(٢) الديوان : ٣٦ .

(٣) تلمة ديوان ابن الجهم : ١٢٨ .

ويخاطب أحمد بن أبي دؤاد منكراً عليه انحرافه عن الطريق القويم ويقول:

ما هذه البدع التي سميتها بالجهل منك العدل والتوحيداً (١)
أنسدت أمر الدين حين وليته ورميته بأبي الوليد وليداً (٢)

وكرت في العصر العباسي فرق الشيعة والرافضة ، وفلا بعضهم في علي - كرم الله وجهه -
وآل بيته ، ووصل هذا إلى حد ادعاء النبوة لعلي رضي الله عنه ، ويقول في هذا هرون بن
سعد العجلي (٣) منكراً هذا الغلو ، وخاصة من غالبية الشيعة الامامية ، وهرون هذا من شعراء
الزيدية ، يقول عن الرافضة والشيعة :

ألم تر أن الرافضين تفرقوا فكلهم في جعفر قال منكراً
فظائفة قالوا إله ومنهم طوائف سمته النبي المطهراً
فإن كان يرضى ما يقولون لجعفر فإني إلى ربي أفارق جعفر (٤)

ويرد السيد الحميري (٥) على الذين غلوا في علي وجعلوه إلهاً فيقول:

قوم غلوا في علي لا أبا لهم وجشّموا أنفساً في حبه تعبكا
قالوا هو الله جل الله خالقنا من أن يكون ابن أم أو يكون أباً (٦)
فمن أدار أمور الخلق بينهم إذ كان في المهد أو كان في البطن محتجبا

-
- (١) المعتزلة يسمون أنفسهم بأهل العدل والتوحيد .
(٢) الديوان : ١٢٦-هـ ، والمراد بأبي الوليد هو محمد بن أحمد بن أبي دؤاد .
(٣) هو هرون بن سعد العجلي ، رأس الزيدية في أيامه ، من المتهردين العلماء بالحديث
له أشعار قليلة ، خرج مع ابراهيم بن عبد الله وهو شيخ كبير فولاه واسط ، وحينما بلغه
مقتل ابراهيم توجه إلى البصرة وتوفي بها سنة ١٤٥هـ . وانظر في ترجمته :
عيون الأخبار : ١٤٥ / ٢ ، والموشع للمزباني : ٤٨٣ .
(٤) عيون الأخبار : ١٤٥ / ٢ .
(٥) هو اسماعيل بن محمد بن يزيد الحميري ، أبو هاشم ، يلقب بالسيد الحميري ، من
الشعراء الذين وقفوا شعرهم على آل البيت ، ولد بعمان سنة ١٠٥هـ ، ونشأ
بالبصرة متردداً بينها وبين الكوفة ، وتوفي ببغداد ، وقيل بواسطة سنة ١٧٣هـ .
له ديوان شعر مطبوع بتحقيق شاكر هادي شكر . وانظر في ترجمته :
طبقات ابن المعتز : ٣٢ ، والأغاني : ٢٢٩ / ٧ ، وفوات الوفيات : ٣٢ / ١ ،
والاعلام : ٣٢٠ / ١ .
(٦) الديوان : ٧١ .

وانتشرت فتنة القول بخلق القرآن ، وَمََّ خَطَرُهَا ، وَفُرِضَتْ فَرْضاً عَلَى علماء الدين الذين وقفوا بكل شجاعة أمام هذه الفتنة وخاصة أحمد بن حنبل رضي الله عنه .
ووقف الشعراء يردون على زاعي هذا القول ، ويوضحون الضلال المبين الذي وقع فيه هؤلاء ، وكان بشر المريسى وأتباعه قد أضلوا المأمون بالقول بخلق القرآن ، فأمن بالفكرة ودعا الناس إليها .

والشاعر الزاهد أبو العتاهية يرد على أحمد بن أبي دؤاد في زعمه بخلق القرآن ، وكان الأولى به أن ينشغل بالفقه وعلم الدين وينصرف عن هذه البدع التي لا ترجع بفائدة ولا تدل على رشد أو استقامة ، ويرد بقوله :

لو كنت في الرأي منسوباً إلى رشد
لكان في الفقه شغلٌ لو قنعت به
وكان عزمك عزمًا فيه توفيق
عن أن تقول كتاب الله مخلوق (١)

وسبق أن أنكر علي بن الجهم ما يزعمه ابن أبي دؤاد ، ولنستمع إلى أبي الحجاج الأعرابي يقول لابن أبي دؤاد :

نكست الدين يا ابن أبي دؤاد
زعمت كلام ريك كان خلقاً
فأصبح من أطاعك في ارتداد
كلام الله أنزله بعلم
أما لك عند ريك من معاد ؟
على جبريل إلى خير العباد (٢)

وهذا مجهول يحتاج بأن هذا الزعم لم يقل به رسول الله (ص) ولا صحابته ، وإنما هو بدعة ابتدعتها الزنادقة :

يا أيها الناس لا قول ولا عمل
ما قال ذاك أبو بكر ولا عمر
لمن يقول : كلام الله مخلوق
ولم يقل ذاك إلا كل مبتدع
ولا النبي ولم يذكره صديق
بشر أراد به إحقاق دينهم
على الرسول وعند الله زنديق
لأن دينهم ، والله محموق (٣)

(١) البداية والنهاية : ١٠ / ٣١٦ هـ

(٢) البداية والنهاية : ١٠ / ٣٢١ هـ

(٣) البداية والنهاية : ١٠ / ٢٧٩ هـ

ولعل ما ذكرناه من أبيات ترد على الزاعمين بخلق القرآن تعطينا فكرة عن اتجاه جديد من الاتجاهات الإسلامية في الشعر العباسي ، وسواء كانت هذه الأبيات هجاء للمنحرفين أو كانت دفاعاً عن الإسلام فإنها على كل حال تمثل جانباً من جوانب الالتزام والتسديد في شعر العباسيين .
ولو تتبعنا ما قيل في الرد على هذه الفتنة لتجمع لدينا شعر كثير ، ولكن حسبنا بضعة أبيات تكون دليلاً على ما نقول .

وعلى هذا فإن الحياة العباسية وما انتشر فيها من مذاهب دينية منحرفة أوجدت الدوافع لكثير من الشعراء للتصدي لها ، وكان تشيع بعض الناس لعلي وآل بيته ، والفتنة بخلق القرآن والاعتزال أسباب ثلاثة حركت بعض الشعراء ، فأنكروا هذه الدعاوى الباطلة ، وهجوا من دعا إليها وعمل بها ، وبذلك كان الهجاء والدفاع عن الإسلام غرضين يدخلان في الاتجاه الإسلامي في الشعر العباسي ، ويصوران جزءاً من الحياة العقلية والاتجاهات الشعرية في هذا العصر .

الرثاء

الموت نهاية كل حي ، ومصير كل إنسان طال عمره أو قصره ، وتلك حقيقة آمنت بها الشعوب جميعها ، فهي ترى الناس يخرون صرعى أمام ذلك الخصم الذي لا يهزم وهذا الخصم هو الموت الذي لا مفر منه . وهذه الحقيقة أضاف إليها الإسلام فكرة البعث والجزاء والحساب بعد الموت .

وقد بكى الشعراء قديماً من رحلوا عن هذه الدنيا ، وكان بكاءً عميقاً ، صوروا فيه هذا المصير المحزن الذي ينتظر كل إنسان .

والأمة العربية من الأمم التي تحتفظ بتراث ضخم من المراثي ، وعبرت فيها عن شعورها لفقد قادتها وخلفائها وأبنائها وعلمائها ، وصورت الحزن الذي سيطر على النفوس بسبب الفراق ، وخلطت ذلك بتعداد فضائل المفقود وخلالها الحميدة .

والرثاء فن الحزن والدموع ، فن تغلب عليه العاطفة الصادقة ، ألا وهي عاطفة الحزن والأسى لفقد المرحوم الذي انتقل إلى جوار ربه ، وقد تختلط هذه العاطفة بالجزع أحياناً فيعبر الشاعر عن كراهيته للموت ، ويصور جزعه الشديد على رحيل المفقود ، وقد يشوب هذه العاطفة الاكبار أو الاحترام أو العطف ، وذلك حسب اختلاف المفقود الذي رثاه الشاعر وتجعج عليه .

والرثاء أنواع ثلاثة : الندب والتأبين والعزاء^(١) ، أما الندب فهو ندب الأهل والأقارب عندما يعصف بهم الموت ، فيئن الشاعر ويتوجع ، ويعبر عن صدمة عنيفة صوّت إلى قلبه ، ويبث اللوعة والأسى ، ويرسل الدموع غزاراً .
والتأبين ليس بكاءً ونشيجاً ، بل هو أقرب إلى الثناء منه إلى الخزن الخالص ، إذ يختر نجم من نجوم المجتمع ، فيشيد به الشعراء منوهين بمنزلته السياسية أو العلمية أو الأدبية .
أما العزاء فهو مرتبة عقلية فوق مرتبة التأبين ، وذلك حين ينفذ الشاعر من حادثة الموت الفردية إلى التفكير في حقيقة الموت والحياة ، وقد ينتهي بهذا التفكير إلى معان فلسفية عميقة .

(١) الرثاء لشوقي ضيف (الطبعة الثانية) : ٦٥ ، ٥٦ .

وقد عرف الشعر العربي الرثاء منذ أقدم عصوره ، وردد الشعراء قصائدهم الباكيات على أولئك الراحلين ، وعددوا مزاياهم ، وأثنوا على صفاتهم ، وجعلوا فقدهم خطباً عظيماً من الخطوب ومصيبة عظمى حلت بالقبيلة أو الأمة أو الدين ، وكانت مصيبة أسكت دمعاً غزيراً وقطعت نياط القلوب ، لأن المفقود غال عزيز فهو ابن أو أخ أو قريب أو زعيم أو قائد ، طالت العشرة بينهم وبين الشاعر ، وانتشرت الالفة والمحبة بينهم ، وفجأة فقد واحد من هؤلاء ، وذهب إلى غير رجعة ، وودع الدنيا والأقارب والخلان .

وفي العصر الجاهلي نجد النساء يجتمعن في المآتم للصياح والعيويل على الميت ، ويولفن الأشعار التي يندبن بها موتاهم ، وكانت الخنساء شاعرة الرثاء في العصر الجاهلي ، وقد بكت أخاها معاوية ثم صخرًا بكاءً حاراً يثير اللوعة ، ويدعو إلى الأسي .

كما نجد متم بن نويرة - وهو من المخضرمين - يبكي أخاه الذي قتل في حروب الردة ، ونجد أبا تمام يبكي أخاه وابنه ، ويصور ساعات الاحتضار تصويراً بارعاً ممزوجاً بالدموع والأحزان .

وغير هذا كثير في نذب الأخوة والأبناء والأقارب ، وهو نذب اتصف بالصدق والأصالة في التعبير عن الأحاسيس ووصف اللوعة لفراق المفقود .

وعندما توفي المصطفى عليه السلام حزنت جميع القلوب لفقده ، وبكت عليه العيون ، وسكبت الدمع الهتون لفراقه ، لأنه قائد الأمة وهاديها إلى طريق الحق والعدل والتوحيد ، وقد رثاه الشعراء منذ وفاته إلى اليوم ، وسيظل الشعر عاجزاً عن تصوير بطولته وسماحته وصبره وخلقه الكريم .

وكما ذرف الشعراء دموعهم على النبي (ص) ذرفوها على آل بيته رضوان الله عليهم ، وكان ما تعرضوا له من القتل والمطاردة معيناً نهل منه الشعراء معانيهم الحزينة في مراتبهم لآل البيت وانطلق الشعراء يذرفون عليهم ، ويبيكون كل ذى قلب رحيم على مصرعهم ، فهم الطهرة أرحام النبي وأحفاده ، وهم الشجعان الأتقياء أهل الوقار والإيمان .

وكانت الهاشميات للكميت بن زيد الأسدى من أشهر مراتب آل البيت في العصر الأموي ، وتبعه

دعبل الخزاعي ومنصور النمري والسيد الحميري في العصر العباسي ، ويضيق بنا المقام
عن استعراض نماذج من رثاء آل البيت •

وكما ندب الشعراء أبناءهم وإخوانهم ورسولهم وآل بيته فقد أبناوا خلفاءهم ووزراءهم وقوادهم
تأبيناً حاراً يملؤه الحزن والأسى ، وتظهر عليه آيات الفخر والاعتزاز والاعجاب ، ويمتليء
بصفات المفقود الحميدة ، ذلك المفقود الذي أعز الله به الإسلام ، وقوى به شوكة المسلمين
فهو حامي الدمار ، وهو الحريص على رعاية أمور المسلمين •

وتتناثر قصائد الرثاء للخلفاء والوزراء والقواد في دواوين الشعراء ، وقد يكون الرثاء أقرب
أغراض الشعر إلى صدق العاطفة ، وأبعدها عن المجاملة والتصنع كما في المديح •

وقد تطورت معاني الرثاء قليلاً بعد الإسلام ، لأنه غير بعض المفاخر التي كان الجاهليون
يعدونها ضمن مراثيهم ، وكان سفك الدماء حسنة من الحسنات في نظرهم ، ولما جاء الإسلام
غير هذه النظرة ، وحرّم سفك الدماء إلا بالحق ، وأمر بالعدل والتقوى وإخلاص العبادة لله
وحده •

ونعى الشعراء في عصر صدر الإسلام خليفة رسول الله أبا بكر ، ثم بكوا لفقد عمر وعثمان وعلي
رضوان الله عليهم ، وذكروا في مراثيهم ما كان عليه الصحابة الكرام من التقوى والعدل والحرص
على نشر الإسلام في أنحاء المعمورة • واستمر الشعراء في العصر الأموي يسيرون على هذا
الطريق ، فكلما رحل خليفة أو قائد أو وزير أبنوه ، وفصلوا في صفاته ومحامده ، وكان عمر
ابن عبدالعزيز رضي الله عنه أهم خليفة رثاه الشعراء لسيرته العادلة وتقواه وخشيته لله
سبحانه ، وسرى في العصر العباسي أمثلة كثيرة لرثاء الخلفاء والوزراء والقواد ، وما جاء في
هذه المراثي من المعاني الإسلامية الرفيعة ، والعواطف الصادقة نحو هؤلاء الراحلين •

وأما أنواع من الرثاء كثيرة ، وجدت في العصر العباسي الأول ، ونريد تحديد الإسلامي
منها ، وما يدخل في اتجاهنا الذي ندرسه ، كما سنؤيد كل ما نقول بنماذج تمثل هذا الاتجاه •

وهناك من الرثاء ندب الأقارب والأبناء ، ورثاء الشاعر لنفسه ساعة الاحتضار ، وتأبين الخلفاء والوزراء والقواد وغيرهم .

أما رثاء الشاعر لنفسه فهو تلك الأبيات التي ينشدها عندما يدنو منه الموت ويحس بقرب الأجل ، فينظم أبياتاً يضمنها التفكير في دنياه التي مضت ، والندم على شبابه الذي انتهى ، والتحسر على تفريطه في جنب الله .

وكثيرون من الشعراء أنشدوا أبياتاً عند وفاتهم ، وطلبوا كتابتها على قبورهم ، وبهنا في رثاء الشاعر لنفسه تلك الأبيات التي تعبر عن ندمه لارتكاب المعاصي في دنياه وتصور خوفه من عذاب الله وأمله في عفوه وغفرانه .

والذي لا شك فيه أن أكثر الشعراء صور ندمه على ما فات عند وفاته ، واعترف بخطئه وآمن بقدرة الله ، وتصور الجزاء والعقاب .

ونضرب لذلك مثلاً بأبي نواس شاعر الخمر والمجون والذي قضى عمره في اللهو والمرح فهو أحس في آخر أيامه بالندم على ما فات ، وسجل اعترافه بالتفريط في أيام الشباب ورجا من ربه المغفرة والرضوان في قوله :

وأراني أموت عضواً فعضوا	دب في الفناء سفلاً وعلوا
نقصتني بمرها بي جزوا	ليس من ساعة مضت لي إلا
وتذكرت طاعة الله نضوا	ذهبت جدتي بطاعة نفسي
م تمليتهن لعبا ولهبوا	لهف نفسي علي ليال وأيا
قد أسأنا كل الاساءة فاللهم	صفحنا وغفرا وعفوا (١)

أما ندب الأبناء والأقارب فقد رثى الشاعر العباسي أبناءه وإخوته ، وتفجع عليهم ، وأجرى دموعه غزيرة على فراقهم ، لأنه بفراقهم فقد اللذة والأثس ، ونسي السعادة والهناء ، وخيم عليه الحزن والنهم ، ولكن عزاءه الوحيد هو أن الموت نهاية كل إنسان ، وأنه لا حق بالمفقود عما قريب .

وصور الشاعر العباسي في رثائه لأبنائه وإخوته ساعات الاحتضار ، ودبيب الموت وانتقل إلى فلسفة الحياة والموت ، وأبدع أيما إبداع ، تساعده في ذلك عاطفته القوية وثقافته الواسعة واطلاعه العميق .

(١) ديوان أبي نواس : ٥٨٠ .

ويهمنا من ندب الأبناء والأخوة والأقارب ذلك الرثاء الذي يعبر فيه الشاعر عن تسليمه لقضاء الله وقدره ، ويصور صبره على المصيبة التي تزلت به فإلى الله يرجع الناس جميعاً ، ثم يقرن هذا بالدعاء للميت بالمغفرة والرحمة ، وفي هذا يقول بشار في رثاء ابنه الذي أصيب بفقده :

أجارتنا لا تجزعي وأنيبي	أتاني من الموت المطل نصيبي
صبرت على خير الفتور رزنته	ولولا اتقاء الله طال نحبيبي
الى الله أشكو حاجة قد تقادمت	على حدث في القلب غير مريب
دعته المنايا فاستجاب لصوتها	قله من داع دعا ومجيب
نؤمل عيشاً في حياة زميمة	أضرت بأبدان لنا وقلوب (١)

أما رثاء الخلفاء والوزراء والقواد فقد نشط فيه الشعراء نشاطاً واسعاً ، فلم يمت خليفة ولا وزير ولا قائد الا ورثوه رثاءً حاراً ، وجمعت هذه المراثي بين إثارة الحزن على المفقود ، وإثارة الإعجاب والفخر بأعماله وصفاته ، وإذا كان رثاء البارزين من المجتمع من خلفاء وغيرهم قد عبر عن الحزن والأسى وظهرت عليه علامات الضعف أحياناً فإنه مع ذلك يمتليء أكثر الأحيان بالحماسة والقوة وتمجيد البطولة تمجيداً يثير الحمية في نفوس الشباب للدفاع عن عرين الإسلام حتى الموت ، ويحدث أحياناً أن يخبر البطل صريحاً في ميادين الشرف والجهاد ، فيرثيه الشعراء بمراثٍ حماسية ، تتوجه لهيب المشاعر وتدفع إلى الاستشهاد تحت ظلال السيوف دفاعاً عن حرمة الدين والوطن .

والأمثلة على الاتجاه الحماسي في الرثاء كثيرة ، وأبرز من يمثل هذا الاتجاه أبو تمام في مراثيه لمحمد بن حميد الطوسي ، القائد البطل الذي وقع شهيداً وهو يقاتل بابك الخرمي وجنوده ، ولم يلقِ السلاح حتى لفظ أنفاسه الأخيرة . كما ذُرفت الدموع على القائد يزيد بن يزيد الشيباني الذي فتك بخوارج الموصل ، ورثاه أبو تمام وغيره من الشعراء ، وحظي منصور بن زياد قائد الرشيد بمراثٍ جيدة ، وبعد أن نكب الرشيد البرامكة رثاهم الشعراء ، وصوروا في مراثيهم سداد الرأي والشجاعة والكرم الذي تميز به الوزراء من البرامكة .

ولم يمت خليفة من الخلفاء إلا ورثاه الشعراء ، وصوروا جنع الأمة الإسلامية لفقده ، فهو الذي أعز الله به الإسلام ، وهو الذي رعى حقوق المسلمين ، ومع هذا فهو مطيع

لله مقتد برسوله الصادق الأمين ، ولهذا حق للإسلام والمسلمين أن يحزنوا لفراق هذا الرجل العظيم .

ونفذ الشاعر العباسي إلى معان جديدة في الرثاء ، وأبدع في وصف أهوال الموت ، وما يحل بالميت من ألم وضيق ، والمفقود في مراثي هؤلاء لن ينسى بل ستظل ذكراه الحميدة محفورة بالقلوب ، وهو إن فارق الدنيا فأعماله وأقواله خالدة لن تبلى مع مرور الأيام .

ومرة أخرى يهمننا من رثاء الخلفاء والقادة ما ظهرت عليه مسحة الاسلام من تجلبد على المصيبة ، وتضرع إلى الله بأن يسكن المفقود فسيح جناته ، ويهمننا أيضا في الرثاء وصف أعمال المفقود الجليلة لخدمة الإسلام من قتال ضد أعدائه ، أو عدل بين رعيته أو تطبيق لتعاليم الإسلام السمحاء .
والصلة بين الشاعر ومن يرثيه كانت قوية أيام حياته ، وكان كل منهما يكن للآخر الاحترام والاعجاب والتقدير ، فكان من الوفاء أن يعبر الشاعر عن حزنه لفراق الممدوح ، وكان لزاما عليه أن يمدد صفاته ومزاياه ، ويشير الشاعر لتشاركه في أحزانه على هذا الغليفة أو الوزير أو القائد ، ولذلك نجد الماططة الصادقة ظاهرة في الرثاء غالبا ، على عكس الماططة في المديح التي تشوبها المجاملة ، ويدخلها الرياء .

والروائع في رثاء الخلفاء والوزراء والقواد كثيرة ، وإذا كنا في الأغراض السابقة قد ذكرنا نماذج الإعلام الشعراء ، فلا بد هنا من إيراد نماذج أخرى لشعراء لم يبلغوا من الشهرة ما بلغه هؤلاء الاعلام .
ولنستمع إلى الحسين بن الضحاك (١) وهو يرثي الأمين بقوله :

هو الجبل الذي هوت المعالي لهدهته وريع الصالحون

(١) هو الحسين بن الضحاك بن ياسر الباهلي ، من مواليهم أو هو منهم ، وهو المعروف بالخليع ، أبو علي : شاعر من ندما الخلفاء ، قيل أصله من خراسان . ولد ونشأ في البصرة ، وكانت ولادته سنة ١٦٢ هـ ، اتصل بالأمين العباسي وناداه ومدحه ولما ظفر المأمون ، خافه الخليع ، فانصرف إلى البصرة حتى صارت الخلافة للمعتصم فمدح ومدح الواثق . كان يلقب بالاشقر ، وأبونواس متهم بأخذ معانيه في الخمر ، وعمره رقيق عذب . توفي ببغداد سنة ٢٥٠ هـ وانظر في ترجمته وأشعاره : ابن أبي عمير : ١٦٥/٦ ، ووفيات الأعيان : ١٥٤/١ ، وتاريخ بغداد : ٥٤/٨ ، والطبري : ١٠٢/١٠ ، والديارات : ٢٢ ، وأشعار الخليع لعبدالستار فراج ، والاعلام : ٢٥٨/٢ .

ستندب بعدك الدنيا جواراً
وتندب بعدك الدين المصوناً
فقد ذهبت بشاشة كل شيء
وعاد الدين مطروحاً مهيناً
تعقد عز متصل بكسرى
وملته وزل المسلمونا (١)

ويرثي علي بن الجهم عبد الله بن طاهر ، ويرى أنه ركن من أركان الإسلام قد وهى ،
فاستباح الأعداء حمى الإسلام :

أى ركن وهى من الإسلام
جل رزء الأمير عن كل رزء
أى يوم خنى على الأيام
أدركته خواطر الأوهام
سلبتنا الأيام ظلاً ظليلاً
وأباححت حمى عزيز المرام (٢)

أما أبو تمام فيبدع في رثاء محمد الطوسي ، ويصور عظم المصيبة ، ويبدو صدق الشاعر
في عاطفته ، وتفاعله مع إحساسه العميق بالحزن ، لذلك فهو يثير الحماسة والاسى
بقوله :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر
توفيت الآمال بعد محمد
ألا في سبيل الله من عطلت له
فتى دهره شطران فيما ينوبه
فليس لعين لم يفيض ماؤها عذراً
وأصبح في شغل عن السفر السفر
فجاج سبيل الله وانثثر الثفر
ففي بأسه شطر وفي جوده شطر
رأيت الكريم الحر ليس له عمر (٣)

وعاطفة أبي تمام الدينية قوية في أكثر مراثيه ومدائحه ، وربما كان صدق العاطفة لديه
سبباً في إبداعه وعظمته في تصوير بطولات المسلمين ومعاركهم ، ذلك التصوير الذى
يشحذ العزائم إلى النظر في سيرة هؤلاء القادة ، وما سجلوه من صفحات مشرقة
في تاريخ المسلمين .

ويظهر نوع جديد من الرثاء في هذا العصر وهو رثاء المدن التى أصابتهما
الكوارث ، أو حل بها الدمار ، وقد بكى كثير من الشعراء تلك المدن التى أصابها

(١) أشعار الخليل : ١٠٨

(٢) الديوان : ١٨٢ .

(٣) الديوان (طبعة بيروت) : ٣٣٠

الهلاك ، ووصفوا عزمها السابق ومجدها التليد ، ثم صوروا ما حل بها من خراب
وحاولوا تعجيل ذلك بما يعتقدون ، وهذه أبيات قالها إسحاق الخريمي (١) في فتنة
بغداد ، وهذه الأبيات قد تتصل بالرثاء الإسلامي ، لأن الشاعر جعل أسباب
الدمار تلك المنكرات والآثام التي انتشرت في هذه المدينة العامرة ، فحل عليها
عقاب الله ، وتحولت إلى خراب ، ومن هذه القصيدة قوله :

يا بؤس بغداد دار ملكة	دارت على أهلها دوائرها
أمهلها الله ثم عاقبها	لما أحاطت بها كبائرها
رقّ بها الدين ، واستخف بذي الـ	فضل وعزّ الرجال فاجرها
وصار رب الجيران فاسقهم	وابتز أمر الدروب شاطرها
يحرق هذا وذاك يهدمها	ويشتفي بالنهب داعرها (٢)

وهكذا فان رثاء الإسلامي غرض أجاد فيه شعراء العصر العباسي الأول ، وأبرزوا في
قصائد هم المعاني الإسلامية ، من صبر على المصائب ، وتوكل على الله وتضرع إليه بطلب
المغفرة والرضوان ، ووضحوا في مراثيم فضائل المفقود وصفاته الحميدة من ورع وتقوى
وحرص على مصالح المسلمين وبطولة في سبيل الذب عن حياض الإسلام .

(١) هو أبو يعقوب إسحاق بن حسان الخريمي ، كان ولاؤه في غطفان ، ولزم

عثمان بن خريم الغطفاني فنسب إليه ، وأكثر مدائحه فيه .
تألق نجمه في عصر الرشيد والبرامكة ، وفي أشعاره ما يدل على أنه لم يكن
ماجنا ولا زنديقا . فقد اعدى عينيه ميكرًا ، ثم فقد الأخرى بعد ما أسنّ
وتوفي سنة ٢١٤ هـ . انظر في ترجمته وأخباره :

طبقات ابن المعتز : ٢٩٣ ، والشعر والشعراء : ٨٢٩ ، وماهد التنصيص :
٢٥٢/١ ، وعيون الأخبار : ٢٣٩/٣ ، والبيان والتبيين : ١١/١ ،
والورقة : ١٠٢ ، وتاريخ بغداد : ٣٢٦/٦ ، والطبري : ٤٥٨/٦ .

(٢) الطبري : ١٧٦/١٠ .

وكانت عواطف الشعراء مطوَّعة بالصدق والمشاعر العميقة نحو هذا الرجل الذي ذهب دون رجعة ، ويحس القارئ في هذه المراثي التي تحدثنا عنها امتزاج عاطفة الشاعر بما ينظمه من أبيات .

وأسلوب الرثاء رقيق في الغالب ، ولكنه يميل إلى القوة والجزالة أحياناً ، وذلك عندما يفتخر الشاعر بأعمال المفقود أو صفاته .
وحظ الرثاء من التطور كان محدوداً في إبداع الشاعر العباسي في وصف أهوال الموت وساعات الاحتضار ، وإجاداته في بيان منزلة المرثي الذي فقد الكرم والجد بوفاته والشاعر العباسي قد أجاد في هذه المعاني أكثر من إجادة من سبقوه .

وقد راعت الاختصار في الحديث عن الرثاء ، وسبب ذلك هو التشابه الكبير بينه وبين المديح من حيث المعاني ، إذ لا فرق بين الغرضين إلا أن المديح مديح للحي والرثاء مديح للميت كما يسميه بعض الأدباء . ونلاحظ تشابه المعاني الإسلامية في المديح والرثاء تشابهاً كبيراً ، إلا أن هذه المعاني بصيغة الحال في المديح وبصيغة الماضي في الرثاء .

الزهد والمواعظ

الزهد فن جديد من فنون الشعر الإسلامي في العصر العباسي الأول ، تضافرت أسباب كثيرة على ظهوره واتساعه ، وقد أجمع دارسو (١) الأدب في هذه الفترة على أن الزهد غرض جديد من الأغراض الشعرية التي جاء بها الشاعر العباسي ضمن ما جاء به من تجديد وتطوير لأغراض الشعر عامة . وقد سبق الحديث عن أغراض الشعر الإسلامي التقليدية في هذا العصر من الهيئات ومديح ورثاء وهجاء ، تلك الأغراض التي نظم فيها الشعراء الأقدمون ، ثم جاء الشاعر العباسي وزاد عليها أو نقص ، واتضح لنا خلال دراستنا لتلك الأغراض ما يدخل في الاتجاه الإسلامي منها .

وعند البحث عن أسباب ظهور هذا الغرض الجديد من أغراض الشعر العباسي لا بد من إلقاء نظرة سريعة على المجتمع العباسي تصور لنا الظروف التي نشأ بسببها الزهد الإسلامي ، ذلك لأن الشعر غالباً صدى لعادات المجتمع وتقاليده ، وصورة يرسم الشعراء فيها ما يجري في حياتهم وحياة معاصريهم من أحداث . يقول أنيس المقدسي (٢) : " في كل عصر وفي كل قطر إذا كثرت أسباب الفنى والترف نشأ في المجتمع البشرى مجريان متطرفان : الأول مجرى العبث والغلاعة ، والثاني مجرى الحرص والتكشف " .

وقد أفاضت كتب الأدب والتاريخ في وصف الشراء والترف الذي وصل إليه مجتمع العباسيين ، فقد وصلت الدولة أوج قوتها وعظمتها ، فكثرت لذلك الأموال إلى حد بعيد وامتلات خزائن الدولة بملايين الدينار ، ونعجب أحياناً حينما نسمع بعض الأرقام عن دخل الدولة في عهد الرشيد أو المأمون وغيرهما .

(١) انظر في نشأة الزهد في العصر العباسي :
العصر العباسي الأول لشوقي ضيف : ٣٩٩ ، والآداب العربية في العصر العباسي
لمحمد عبد المنعم خفاجي : ٢٠٢ ، واتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني
الهجري لمحمد مصطفى هداره : ٧٥ ، والشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث
الهجري لأحمد الجوارى : ٢٤٨ ، وتاريخ الشعر العربي لنجيب البهيتي : ٣٧٥ .

(٢) امراء الشعر العربي في العصر العباسي : ١٤٩ .

وكان الغلفاء والوزراء والقواد وكبار رجال الدولة ينثرون الأموال بدون حساب على الشعراء والمفنين والمؤلفين والمترجمين والأطباء وكل شخص برز في عمل من الأعمال ، أو اشتهر بمهنة من المهن ، ومع كثرة الأموال وتدفعها على الناس كانت الأسعار رخيصة وإلى حد قد لا نصدقه في عصرنا الحاضر ، وفي كتب التاريخ ما يشير العجيب عن هذه الأسعار ، ومع كثرة الأموال ونثرها على الطبقات المختلفة حدث امتزاج الحرب بغيرهم من الأجناس الأخرى ، وكان امتزاجا جنسيا وثقافيا وسياسيا ، وتفاعلت هذه الأجناس المختلفة في عناصرها وثقافتها وعاداتها وتقاليدها على خلق حياة جديدة في المجتمع العباسي .

وتوجد صورتان لهذا المجتمع ، ولكل منهما مظاهرهما ، أما الصورة الأولى فهي : انتشار الفناء ، وكثرة الجوارى وادمان الناس على شرب الخمر ، ووجدت الحرية الفكرية وكثرت الطل والنحل ، وانتشرت الزندقة ، وفشا الالحاد ، ووجد أصحاب الأهواء المنحرفة والشهوات الجامحة وما يتمنونه ، وانغمس المجتمع العباسي في الترف ، وحرص الناس على جمع المال ، وافتنوا في زخرفة الحياة ، فكثرت المطاعم والمشارب ، وارتفعت القصور الشاهقة المزركشة ، وتعددت مجالس اللهو والخمر والسمر ، وتعمقت الكؤوس وصدحت المغنيات بأعذب الألحان ، وُسِّيت لذلك الدار الآخرة ، وأصبح الموت والجزاء غيالين لا وجود لهما في حياة العباسيين .

تلك صورة تمثلها طبقة من طبقات المجتمع ، جمعت بين الجد واللهو ، وكان حظها من اللهو كبيرا ، ونصيبها من الجد قليلا .

أما الصورة الثانية فهي صورة وقفت أمام هذا التيار الجارف من الاقبال على الدنيا ومتاعها ، ولذا كانت قد وجدت طائفة همها إدمان الخمر وسماع الغناء ، وجمع الأموال واعتناق المذاهب المنحرفة فقد وجدت طوائف أخرى ، تمثل عامة الناس وسواد الشعب ، طوائف زهدت في الدنيا وأقبلت على طاعة الله وعبادته ، وأنكرت على المنحرفين فسوقهم وفرورهم بمتاع الدنيا الزائل ، ودأبت على إلقاء المواعظ والأحاديث الدينية ناهية في مواعظها عن الاستسلام لمظاهر الحياة وبهرجها ، محذرة من ساعة يندم فيها كل مفرط ، وموضحة أن الموت قريب وأن هذه الزخارف الدنيوية لن تبقى .

ونشأت بسبب ذلك حركة الزهد والتنسك ، فتزهد كثير من الناس ، واعتزلوا الدنيا وتفرغوا لعبادة الله ، وانجرت طائفة من الزهاد تعظ الناس ، وتزهدهم في متاع الدنيا ، تلك الحياة التي لا بد أن ينهيها الموت الذي لا يبقى على أحد ، وصارت تحذرهم من يوم الجزاء والحساب ، ذلك الموقف العظيم الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم .

وانتشر الوعاظ والمحدثون والنسك في مساجد بغداد والكوفة والبصرة ، والتفت حولهم طائفة كبيرة من الناس ، وكثرت حلقات الدرس والوعظ والارشاد ، وبرز عدد من الوعاظ والمحدثين المشهورين أمثال : مالك بن دينار ، وسفيان ابن عيينه ، وسفيان الثوري ، والفضيل بن عياض ، وغيرهم ، وأصبح هؤلاء ينشدون الأشعار في مواظهم ويرددون التحذير من مباحج الدنيا ، ويحثون على العمل الصالح الذي يبقى ذخراً ليوم عظيم .

وعلى هذا فقد كان انتشار الترف واللهو والمجون والزندقة في العصر العباسي سبباً مباشراً في ظهور حركة الزهد وكثرة الزهاد والشعراء الذين نظموا قصائد هم مزهدين في الدنيا ، وآمرين بعمل الصالحات ، وكانت حركة الزهد التي نشأت في العصر العباسي الأول بمثابة مقدمات لظهور التصوف الاسلامي في العصر العباسي الثاني .

ومن الممكن إضافة أسباب أخرى لنشأة الزهد في العصر العباسي ، فلم تكن الحياة الاجتماعية فيه هي السبب الوحيد لظهور هذا التيار الجديد ، بل تضاف إلى ذلك عوامل سياسية واقتصادية وفي ذلك يقول محمد هداره : " إن الدافع الديني للزهد ليس الدافع الوحيد ، بل لقد اختلط بعوامل سياسية واجتماعية ، وربما اقتصادية أيضاً " (١) ، ويقول مشبهاً أن تيار المجون كان سبباً في ظهور تيار الزهد : " إن وجود تيار الزهد المضاد لتيار المجون منطلق طبيعي لتطور الأشياء " (٢) .

وخلاصة ما سبق أن الزهد فن جديد لم يعرفه الشعر العربي معرفة حقيقية إلا في العصر العباسي الأول وما بعده ، وكان ظهور هذا الفن نتيجة لأسباب متعددة أهمها تيار المجون والترف الذي سيطر على المجتمع العباسي ، وتغلغل في حياة طبقة من طبقاته .

(١) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري : ٢٨٨ .

(٢) المرجع السابق : ٢٩٠ .

ولكن ما هو الزهد ؟ وما المراد بشعر الزهد ؟

يقال : زهد في الشيء ، أى : رغب عنه وانصرف الى غيره ، ويقال : زهد في الشيء أى : رغب في الانصراف عنه ، وحث على عدم الاهتمام به .
أما الزهاد ، فهم الذين زهدوا في الدنيا ومتاعها من مال وقصور ومطاعم ومشارب وعاشوا على الكفاف ، وانصرفوا إلى عبادة الله بالتنسك في المساجد والاعتكاف فيها ، وقد بالغ بعض الزهاد في الانصراف عن الدنيا ، فانعزل عن الحياة والناس ، وترك العمل ووقف حياته على العبادة ، ونسي أن الله أمر بالعمل والكسب الحلال ، وتجاهل أن الله أحل للإنسان التمتع بما رزقه من الطيبات دون إسراف ولا تبذير ، ويضاف إلى هذا أن الدولة الإسلامية بحاجة إلى رجال يعملون لصلاحها ، ويتعبون من أجل عمارتها ، والعمل والكسب الحلال لا يتنافى مع العبادة والطاعة . وعلى الانسان أن يكون في حياته وسطا لا إفراط ولا تفريط كما أمر بذلك الإسلام الحنيف .

وشعر الزهد هو الذى يصور هوان الدنيا وما فيها من نعيم ، ويحث على عبادة الله وطاعته ، وينهى على هوى المخذوعين انصرفهم إلى دنياهم واهمالهم لآخرتهم ، ويحذر بأن الدنيا قصيرة مهما طالت ، وأن العمر سنوات معدودة ثم تنتهي . والموت مصير لكل إنسان ، فماذا أعددنا لما بعد الموت ؟ وماذا عملنا لدار البقاء ؟

وشعر الزهد هو الذى يصور شهوات النفس الجامحة التى تنحرف بالانسان عن الطريق المستقيم ، وتهوى به إلى مهاوى الردى ، فان طواع شهواته ضل ، وإذا كبح جماحها استقام وسلك طريق الصالحين ، والزهد هو الذى يبين أن الدنيا لا تساوى سعينا الطح وراءها ، ولا تستأهل زهاب أعمارنا في سبيل جمعها والسعي الحثيث لنيل ما فيها من مناصب وأموال .

إذا فليس المراد بالزهد أن ينعزل المسلم عن الحياة ، وينطوى على نفسه في ركن من أركان المسجد ليصلي ويصوم ، وليس المقصود بأشعار الزهد تلك التى تنفر من الدنيا وتأمّر بالقعود عن العمل ، وتنظر إلى الحياة نظرة ملوثة بالتشاؤم والكآبة . وإذا كان الزهد غرضاً جديداً من أغراض الشعر العباسي فلا يعني هذا عدم وجوده قبل العصر العباسي ، فقد وجد في الشعر الأموي ما يدل على معاني الزهد ، ولكن هذه المعاني كانت مجرد نظرات عابرة في بيت أو بيتين وفي وسط

قصيدة الرثاء أو المديح ، ولا يعطيه الشاعر أى اهتمام . لذلك فلا يمكن القول بأن الزهد وجد في الشعر الأُموي ، بل يمكن القول بأنه وجد في العصر العباسي ، واتخذ شكلاً جديداً ، ونظمت فيه قصائد كاملة ، بل ونظم في الزهد شعراء عرفوا باللهو والمجون .

والزهد والوعظ غرضان متشابهان ، أحدهما مكمل للآخر ، فالواعظ يزهد في الدنيا ، والزاهد يخلط زهده بمواعظ ونصائح أخرى ، والشعراء الذين نظموا في الزهد هم الذين نظموا في المواعظ أيضاً ، ولذلك جمعت بينهما في فصل واحد ، ودرستهما كما يدرس الباحث غرضاً واحداً .
وما خلفه شعراء العصر العباسي الأول من أشعار الزهد والمواعظ كثير جداً ، وتحفل به دواوين الشعراء وكتب الأُدب ، ويندرخلو ديوان شاعر من الزهد سواء كانت قصائد كاملة أم أبيات ضمن غرض آخر .

وقد نظم في الزهد والوعظ عدد كبير من شعراء العصر العباسي أمثال :
أبي العتاهية ومحمود الوراق ومحمد بن كناسة وعبدالله بن المبارك والخليل بن أحمد ومحمد بن أبي العتاهية والفضيل بن عياض وغيرهم ، وأغلب شعراء الزهد هم من الذين لم يتكسبوا بشعرهم ، وبالتالي لم يكن لهم الشهرة ما كان لأعلام الشعراء ومشهورهم . ويختلف ما قاله الشعراء في الزهد من حيث الكثرة والقلة ، والأسلوب الذي اتبعه كل منهم في عرضه لمعاني الزهد والوعظ .

وقبل أن نسرد الشعراء الذين نظموا أشعار الزهد ونستعرض معانيهم لا بد لنا من الوقوف طويلاً عند زهد أبي العتاهية وزهد أبي نواس ، أما الوقوف عند زهد أبي العتاهية فللكثرة ما نظمه في هذا المجال من جهة ، وللشك الذي ألحقه به القدماء والمعاصرون من جهة ثانية ، أما وقوفنا عند زهد أبي نواس ، فلأن الشاعر شاعر لهو وخمر ، فكيف ورد الزهد في شعره ؟ وهل كانت حياته تجمع بين النقيضين ؟
وأمر أبي نواس قد يكون سهلاً ، لأنه عرف بالمجون ، واشتهر بالخلاعة ، وتعدى حدود الخلق والدين ، وأكثر شعره يصور هذا الاتجاه من خمريات ومجون وهجاء فاحش وغزل بالمذكر ، مع احتمال إضافة كثير من أشعار المجون إليه لشهرته به (١) ، كما أن

حياته الماجنة كانت مطابقة لشعره ، فهو لا يتعدى مجالس اللهو ، ولا يفارق مقاصف الخمر والفناء ، مع ما يجرى في هذه المجالس من اختلاط بالجواري والفلمان وما يجرى بينهم من مداعبات ومجون .

وقد صور أبو نواس حياته اللاهية التي كان يعيشها أصدق تصوير ، ورسم صوراً لمجالس اللهو والخمر ، وأبدع في وصف دنان الخمر وسقاتها وندمائها ، وفصل ما يجرى في هذه المجالس من غزل ومداعبات تصل الى حد الافحاش وتجاوز حدود الدين ، وجاهر أبو نواس في مجونه ، وأعلن ثورته على العرف والخلق والدين ، وهياً له العصر العباسي كل الأسباب ، وفتح له الباب على مصراعيه ليفعل ما يشاء ويقول ما يشاء ، دون أن يجد من يردعه أو ينهاه ، بل وجد من يؤيده ويناديه عني من هؤلاء الذين يفترض فيهم الورع والتقوى ، ومضى في أشعاره يصور تلك الحياة الماجنة المستهترّة ، وهو يجاهر بالمعاصي ويقول بصراحة تامة :

ألا فاسقني خمرًا وقل لي هي الخمر ولا تسقني سرًا اذا أمكن الجهر
وبح باسم من تهوى ودعني من الكنى فلا خير في اللذات من دونها ستر (١)

ويقول :

لا تبك ليلي ولا تطرب إلى هند واشرب على الورد من حمراء كالورد
كأساً إذا انحدرت في حلق شاربها أجدته حمرتها في العين والخد
فالخمر يا قوتة ، والكأس لوءوّة في كف جارية مشوقة القيد
تسقيك من يدها خمرًا ، ومن فمها خمرًا فما لك من سكرين من بد (٢)

ويعلن إعلاناً صريحاً ارتكابه للمعاصي بقوله :

تري عندنا ما يسخط الله كله من العمل المردى الفتى ماعدا الشركا (٣)

وغير هذا كثير مما قاله وفعله أبو نواس من التهتك والمجاهرة بارتكاب الكبائر .

(٢) الديوان : ٢٦٥ .

(١) ديوان أبي نواس : ١٠٨

(٣) الديوان : ٢٥٠

وكان إلى جانب هذا المجون في شعر أبي نواس جانب آخر ، وهو الجانب الجدى الزاهد ، فنقرأ في شعره تلك الإلهيات الرائعة والمناجاة الخاشعة التي أوردنا أبياتها في الحديث عن الإلهيات .

ونجد في ديوان أبي نواس روائع في الزهد والحث على التوبة ، والتحذير من غرور الدنيا ، وأن الموت هو المصير المحتوم ، فلماذا العيب والتجاهل لهذه النهاية التي لا بد منها ؟

وإذا كنا نقرأ لأبي نواس أشعاراً كثيرة في الخمريات والمجون والمجاهرة فإننا نقرأ له أيضاً كثيراً من قصائد الزهد والمناجاة الرائعة ، التي بلغ فيها حداً كبيراً من الروعة والإبداع ، واستمع إليه يقول :

يا رب وإن عظمت ذنوبي كثرة	فلقد علمت بأن عفوك أعظم
إن كان لا يرجوك إلا محسن	فبمن يلون ويستجير المجرم ؟
أدعوك رب كما أمرت تضرعاً	فإذا رددت يدي فمن ذا يرحم ؟
مالي إليك وسيلة إلا الرجاء	وجميل عفوك ثم أني مسلم (١)

ويقول معاتباً نفسه ومحذراً من ارتكاب المعاصي وفعل الموبقات :

أفنيته عمرك والذنوب تزيد	والكاتب المحصي عليك شهيد
حتى متى لا ترعوى عن لذة	وحسابها يوم الحساب شديد
وكأنني بك قد أتتك منيعة	لا شك أن سبيلها مسرود (٢)

ويزهده في الدنيا ومباهجها بقوله :

لا تفرغ النفس من شغل بدنها	رأيتها لم ينلها من تمنها
إنا لننفس في دنيا موليعة	ونحن قد نكتفي منها بأدناها
أنت اللثيم الذي لم تعد همته	إيثار دنيا إذا نادته لباهها
يا راكب الذنب قد شابت مفارقه	أما تخاف من الأيام عقباها ؟ (٣)

(١) الديوان : ٦١٨ .

(٢) الديوان : ٦١٩ .

(٣) الديوان : ٦١٣ .

وللشاعر في الزهد والآهيات قصائد جياذ ، تنبيء عن صدق الندم ، وتحسر على التفريط ، وتشاؤم من عفو الله . وقد نعجب لوجود مثل هذه الأبيات لشاعر وقف حياته وشعره للشمر واللهمو والعبث ، فكيف وجدت تلك الزهديات في بحر من المجون والفسق الذي يمتليء به ديوان الشاعر ؟

مما لا شك فيه أن أبا نواس عاش حياة صاخبة باللهمو والمجون ، وقضى سنوات طويلة من عمره متردداً على مجالس الخمر والفناء ، وقد صور الشاعر حياته في شعره تصويراً صادقاً نحس فيه صدق الشاعر في وصفه للحياة التي كان يعيشها في الواقع .

وأبو نواس ماجن بلا شك ، فاسق بلا ريب ، تعدى حدود الدين وجاهر بارتكاب المعاصي . ولكن هل كان صادقاً في زهده ؟ ولماذا نجد الزهد والمجون مجتمعين في شعره ؟ وهل من الممكن أن يكون ما نسب إليه في الزهد منحولاً ؟

في الحقيقة أن أبا نواس صادق في زهده كل الصدق — على الرغم من كثرة مجونه وخمرياته — لأسباب أهمها : تلك الحسرة التي تملأ جوانحه على تفريطه ، وترديده للاستغفار وطلب العفو من الله بالحاح شديد يصل إلى حد اليأس من المغفرة ، وتصويره لعظم ذنوبه ، وأن عفو الله أوسع وأعظم مما ارتكب من خطايا ، والشاعر مع هذا كله يجأر بذنوبه كما يجأر الذبيح متضرعاً ذليلاً إلى أبعد الحدود . وهذا بلا شك يعطينا صورة لرجل قضى عمره في الفسوق ، ثم ندم في آخر حياته ندماً شديداً . هذه ناحية صورتها أبيات زهده وآهياته .

وهناك ناحية أخرى تقوي صدق أبي نواس في زهده ، وهي ما ورد في الأغاني (١) من أن أبا نواس تنسك في آخر عمره ، ويقول شوقي ضيف عن أبي نواس " وكانت قد علتة شيخوخته فأخذ ينيب إلى ربه ، وينظم أبياتاً في الزهد ، وفي أخباره ما يدل على أنه تنسك مراراً " (٢) ويؤيد محمد هداره صدق أبي نواس في زهده بقوله : " إن أبا نواس قال زهدياته في فترات صحوه وتوبته ، وهذا لا يتعارض مع شعره الماجن أبداً " (٣) .

إن أبا نواس قال زهدياته في فترات توبته وتنسكه ، وكان صادق الاحساس فيما نظمه من الزهد ، فكانت روحه تسمو إلى خالقها ، وتحس بعظم خطاياها فتتوجه إلى الله معترفة بالذنوب وراجية المغفرة والرضوان .

(١) الأغاني : ٢ / ١٨

(٢) العصر العباسي الأول : ٢٢٦

(٣) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري : ٣١٦ .

ولا تعارض بين مجون أبي نواس وزهده ، ولو فرضنا - جدلاً - كذب أبي نواس في زهده فيكفي أنه أبدع فيها ، وترك لنا أبياتاً تحفل بالمعاني الإسلامية الرائعة من دعاء وتضرع وحث على العمل الصالح قبل فوات الأوان .

ويطول وقفنا عند أبي العتاهية : " فهو أبو الشعر الديني في الأدب العربي بحق " وهو شاعر الزهد الأول في الأدب العربي ، وقد امتلأ ديوانه بقصائد الزهد في الدنيا واحتقار شأنها والتحذير من غرورها ، كما حفلت أشعار أبي العتاهية بتصوير الموت وأهواله ، وتصوير القبور وبشاعتها ، وفي القبور يتساوى الأغنياء والفقراء . ويكرر أبو العتاهية هذه المواعظ بأساليب مختلفة ، يتفنن في اختصار ألفاظها وأوزانها ، وتتميز تلك المواعظ بالسهولة والبساطة ، حيث يدركها العلماء والعامّة على السواء .

وقد طبع الآباء اليسوعيون ديوانه عام ١٨٨٦ م وهي طبعة محرفة حذف فيها كثير من القصائد التي يذكر فيها رسول الله (ص) ثم حقق الديوان وجمعه شكري فيصل ، وسيكون الاعتماد على ديوانه الأخير .
وأشعار الزهد والمواعظ تكون ثلاثة أرباع ديوانه تقريباً ، وفي هذه القصائد الكثيرة يردد أبو العتاهية احتقار الدنيا ، ويصور هول الموت ووحشة القبر ، ويحذر من مباحج الدنيا الخداعة .

وقد أحاط القدماء والمعاصرون زهد أبي العتاهية بالشك والالتهام ، وقد حووا في صدق عواطفه الدينية ، واتهموه بالنفاق في زهده . فهل كان أبو العتاهية صادقاً فيما يردد من أشعار الزهد ؟ وما هي قيمة هذه الثروة الكبيرة من الأشعار ؟

ولد أبو العتاهية سنة ١٣٠ هـ ، وعاش أول حياته في أسرة فقيرة ، وكان مغموراً يرجع بالولاء إلى عنزه ، تفتقت مواهبه الشعرية مبكرة ، وانخرط أول أمره في سلك المخنثين (١) ، واتصل ببيئات المجان أمثال مطيع بن إلياس ووالبة بن الحباب ثم اشتهر أمره ، فمدح الهادي والمهدي والرشيد والمأمون ، ونال عطاياهم وكثرت ثروته ، وكان الرشيد يجري عليه في كل سنة خمسين ألف درهم (٢) عدا الجوائز والهدايا

(١) الأغاني : ٧/٤

(٢) الأغاني : ٠٦٣/٤

واستمر في حياة اللهو والمجون ، ونظم أشعاراً جيدة في المديح والغزل ، ثم تحول إلى الزهد ، ولبس الصوف سنة ١٨٠ هـ عندما سكن الرشيد الرقية ، وصار ينظم قصائد الزهد والوعظ ويردد كثيراً من معاني القرآن الكريم والحديث الشريف وما أخذه عن الثقافات المختلفة . وامتنع عن الغزل حتى حبسه الرشيد ليعود إلى النظم في الأغراض التقليدية ، ولكن أبا العتاهية استعطفه ، فرق له ، وأطلق سراحه . واستمر الشاعر يردد أشعاره الزاهدة حتى توفي سنة ٢١٠ هـ .

هذه نبذة مختصرة عن حياة شاعر الزهد العربي ، تعطينا فكرة موجزة عن الانتقال من المجون إلى الزهد في حياة أبي العتاهية ، ونستطيع على ضوء ذلك أن نناقش ما قيل من شك حول زهد الشاعر .

والشك في زهد أبي العتاهية ليس جديداً ، فقد اتهمه القدماء بالنفاق فيما يظهره من الزهد ، وقد هتف به منصور بن عمار في مواعظه وقال : إنه زنديق مستدلا بأنه يذكر الموت ولا يذكر الجنة والنار (١) ويظن ابن المعتز (٢) ان أبا العتاهية ثنوى ، يؤمن بأن للعالم آلهين ، آله الخير وآله الشر ، ويتممه سلم الخأسر بالنفاق في زهده بقوله :

ما أقيح الترهيد من واعظ يزهد الناس ولا يزهد (٣)

واتهمه كذلك كثير من المعاصرين ، وشكوا في عقيدته ، يقول : ^{شوقي منيف} إنه منج المانوية بالإسلام ، ومما يدل على كذب زهده أنه يكتنز الذهب والفضة وكان شحيحاً لا يتصدق بدانق ، وأنه ظل يمدح الرشيد والمأمون بعد تنسكه وينال عطاياهم ، فهو زاهد في الظاهر ، يطلب الدنيا ومتاعها في الباطن (٤) ، ويقول خفاجي : " وقد أكثر أبو العتاهية في شعره من الدعوة إلى الزهد ، ومع ذلك فقد كان في ثراء عريض " (٥) ، ويرى جرجي زيدان (٦) إنه سوداوي المزاج كثير التردد في أمر الدين ، ويؤيدهم أنيس المقدسي بقوله : " إن حياة أبي العتاهية تخالف شعره ، وهذا وجه الضعف في رسالته " (٧) . وهذه الاتهامات متقاربة في مضمونها ، تجعل الباحث يشك حقاً في عقيدته وصدقته في أشعار الزهد التي يرددها ، ونحن هنا لا نريد الدفاع عن أبي العتاهية ، بل نريد معرفة الحقيقة والوصول إلى حكم عادل مرتكز على سيرته في حياته ومؤيد بالأدلة من شعره .

-
- (١) الأغاني : ٣٤ / ٤ (٢) طبقات الشعراء : ٢٨٨
(٣) معجم الأدباء لبقاوت : ٢٤٨ / ٤ (٤) العصر العباسي الأول : ٢٤٣
(٥) الآداب العربية في العصر العباسي الأول : ٢٠٣
(٦) تاريخ آداب اللغة العربية : ٦٨ / ٢ (٧) أمراء الشعر العربي في العصر العباسي : ١٦٠

أما زندقة أبي العتاهية واتهامه باتباع مذهب الفلاسفة ، فليس هناك ما يثبتهما
ولم يذكره ابن النديم في جملة الشعراء الزنادقة ، وكل ما في الأمر أن بعض الذين نظروا
في شعره توهموا أنه زنديق يتحرى مذاهب الفلاسفة ، واعتمدوا على بضعة أبيات
لا تعدو أن تكون مبالغة شعرية تجرى على لسان المؤمن لا يوضح معنى شعري ،
ولو افترضنا صحة هذه الأبيات فان هناك قصائد كاملة تثبت صحة عقيدته ودعوته
إلى الله سبحانه .

والإتهام بالزندقة أمر شائع في العصر العباسي ، ولم يسلم من هذا الإتهام
الاقليل ، ولو صدقنا جميع التهم بالزندقة لوجدنا أن أغلب شعراء العصر العباسي
من الزنادقة والملحدين .

والذين يتهمونه بالزندقة ويشكون في زهده ، يعتمدون على أسباب منها :
سيرته الأولى الماجنة ، وحرصه على جمع المال ، والثالث أن يأسه من حبه لعتبه
جعله يتزهد في أشعاره .

أما مجونه في أول حياته فليس غريباً أن يتحول إنسان من المجون إلى التدين
بل إن تحوله إلى الزهد أمر عادي لا يتعدى كونه رد فعل لحياته الأولى ، وهو في حياته
الماجنة كان ميالاً إلى عدم الاسراف في السموات ، ولم يخ العنان لنفسه كبقية
زملائه المجان (١) .

وحرص أبي العتاهية على جمع المال بعد تحوله إلى الزهد قد يكون دليلاً على كذبه
في زهده ، ولكن العوامل المختلفة جعلته يحرص على كسب الأموال ، وأولها : أنه عاش
في أول حياته فقيراً وأصبح الفقير شبحاً يخيفه ، وثانيها أنه بلغ الخمسين من عمره
وفي هذه السن يزداد حرص الإنسان على الدنيا ، وأبو العتاهية مع جمعه للمال وحرصه
على الدنيا كان لا يسرف ولا يبذر ، وكان مقتصداً في مطعمه وشربه ، ولم ينصرف إلى
لذائذ الدنيا ، ولعل جمعه للمال كان بسبب خوفه من الفقر ، وبلوغه الخمسين من عمره .

أما من قال إن زهده كان بسبب يأسه من عتبه فقد نظر إلى الحادثة نظرة قريية
ولو تعمق لوجد أن زهده بعد يأسه من حبه دليل على صحة هذا الزهد ، وذلك لأن
الشاعر عرف مرارة اليأس ، واقتنع بأن الدنيا دار شقاء ، لا يستطيع الإنسان أن يحقق
فيها ما يتمناه ، وأن جميع الأماني تتحقق في الدار الآخرة بعد العمل الصالح في الدنيا .

ومديحه للخلفاء بعد تنسكه وزهده لا ينفى الصدق فيما فعله ، فقد يكون الشاعر مدح الخلفاء مجاملة لهم ، ورغبة في نيل رضاهم أو خوفا من سلطانهم .
وقد يقول قائل : ان أبا العتاهية نظم أشعارا كثيرة في الزهد لعجزه عن النظم في الأغراض التقليدية ، وهذا قول تكذبه أشعار أبي العتاهية في أول حياته ، لأن الشاعر مدح الخلفاء فأجاد ، ونظم في الغزل والهجاء فأبدع ، وكيف يكون عاجزا عن النظم في الأغراض التقليدية وقد أمضى ثلاثين سنة وهو يمدح ويتغزل ويهجو ، وذلك قبل انصرافه الى الزهد .

ولا نريد بما قلناه رفع الشك عن أبي العتاهية ، ولكنها محاولة للبحث عن الأسباب الحقيقية لزهده ، وقد تكون مسألة جمعه للمال في آخر حياته هي النقطة الوحيدة التي تضعف عامل الصدق في زهده .

ولو بحثنا عن الأسباب التي دفعت بأبي العتاهية الى الزهد لوجدنا أن استعداد الفطري الديني كان أهم هذه الأسباب ، وقد استيقظ هذا الاستعداد الفطري في نفسه بعد حياة حافلة بالمجون ، ويضاف إلى ذلك فقره في أول حياته وضعف نسبه ، وقد يكون أبو العتاهية متأثرا بما انتشر في عصره من حركة الوعظ والقصص .

وشاعرنا كان معتدلا في مجونه في أول حياته مترهدا في آخرها ، انصرف عن الغزل والخمر ، وانكب على أشعار الزهد والوعظ يرددها ، ويورد المعاني الإسلامية ويتحدث عن الموت والغنى والفقر ، وذلك بأسلوب المؤمن الذي تأثر بما حوله من مذاهب ، واختط لنفسه طريقا آخر يغاير طريق زملائه المجان ، ومع ذلك لم يكن زنديقا ولا متبعا لمذاهب الفلاسفة والمتكلمين ، لأن شعره واضح سهل ، ولا أنثر للفلسفة عليه ، بل هو أقرب إلى مستوى العامة منه إلى غيرهم .
ولم يكن زهد أبي العتاهية انقطاعا عن الدنيا وحطامها ، بل كان تقبicha لمسلك مترفيها وانذارا بسوء مصيرها ، وتلبية لاستعداد فطري استيقظ في نفسه ، فألهمه روائع الزهد والمواعظ .

وأغلب الظن أن أبا العتاهية صادق في زهده ، ومستقيم في عقيدته على الرغم مما أوردناه من اتهامات ، وتلك القصائد الكثيرة في الزهد لا تنبع إلا من قلب صادق ، ومهما حاول الشاعر أن يخفي عاطفته فلا بد أن تتضح ، ولو استطاع أن يخفيها في قصيدة أو اثنتين ما استطاع ذلك في أكثر شعره .

يقول محمد هداره : " إن أبا العتاهية لم يكن زنديقا متخفيا في ثياب الزهاد " (١) وإذا كان أبو العتاهية قد انحرف في أول حياته إلى المجون ، وأصاب عقيدته شيء من التردد في بيت أو بضعة أبيات من شعره فإنه - مع هذا - رائد الزهد في الأدب العربي بلا منازع ، وقد خلف لنا ثروة عظيمة ستبقى على مرّ الأجيال تنبئها للغافلين وإيقاظا للمنغمسين في نعيم الدنيا .

وإذا كنا نأخذ شيئا على أبي العتاهية فإننا نأخذ عليه التشاؤم في زهده ذلك التشاؤم الذي يحط من قيمة الحياة ، ويأمر بالبطالة وينهي عن العمل وينصح بالانزواء عن المجتمع والحياة . وقد خالف أبو العتاهية في هذا نظرية الاسلام التي تأمر بالعمل وتحث على السعي في أرض الله الواسعة للحصول على الرزق الحلال ، وتبيح للمسلم التمتع بالطيبات من الحلال دون إفراط ولا تفريط .

وتشاؤم أبي العتاهية يتضح في كثير من قصائده ، واستمع اليه يقول :

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير إلى تباب
لمن نبني ونحن إلى تراب نصير كما خلقنا من تراب ؟ (٢)

ومعنى هذا أن نتوقف عن العمل والبناء لأن الموت نهاية لحياتنا والدمار نهاية ما نقوم به من بناء .

ويناقض أبو نواس أبا العتاهية ، فأبو نواس يرى أن الدنيا كأس من الخمر ووجه مليح وصوت عذب ، وماعدا هذا فلا قيمة له .

ونأخذ على أبي العتاهية شيئا آخر هو ترداده لمعان لا تتغير ، فهو يحذر من غرور الدنيا ، ويصف الموت والقبر ، ولا شيء غير هذين يرددهما بصور مختلفة وقواف متعددة ، ومع هذا فقائد أبي العتاهية لا تمل ، لأنه طبعها بطابع السهولة والوضوح ، وأضفى عليها من طبعه نوعا من التشويق واللذة ، لأنه شاعر مطبوع يجرى الشعر على لسانه دون تكلف أو عناء .

وقد طال حديثنا عن أبي نواس وأبي العتاهية حتى أوشكنا أن ننسى شعراء آخرين وقفوا أكثر شعرهم على الزهد والمواعظ أمثال : محمود الوراق وعبدالله بن المبارك ومحمد بن كفاف وغيرهم ، وأشعار الزهد موجودة في أكثر دواوين الشعراء مع اختلاف في الكم والكيف .

(١) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري : ٣٠١ .

(٢) ديوان أبي العتاهية : ٣٤ .

وقد تناول شعراء الزهد في العصر العباسي كثيراً من المعاني بطرق مختلفة وأساليب عديدة ، وصوروا الدنيا على أنها دار ممر لدار مقر ، وأن نعيمها لا يدوم ، فالموت يقضي على كل لذة ، ويفرق شمل الأحباب ، فلا بد من الاستعداد لما بعده بالعمل الصالح الذي يبقى ذخراً ليوم عظيم ، ولجأ الشعراء إلى الترهيب والترهيب ، فوصفوا الجنة وما فيها من نعيم لا يزول ، وصوروا أهوال يوم القيامة وعذاب النار ، ودعوا إلى العمل الصالح استعداداً لليوم الموعود ، وكان القرآن الكريم والسنة النبوية وأحاديث الوعاظ منبعاً استقى منه الشعراء أكثر معانيهم في الزهد والوعظ كما ساعدتهم على ذلك ما ألموا به من الثقافات المختلفة والحكم التي انتشرت في العصر العباسي .

وكان أبو العتاهية أكثر شعراء عصره اهتماماً بالزهد والوعظ ، وقد قضى الثلث الأخير من عمره يردد أناشيد الزهد والوعظ ، وكان يكرر فكرتين :
أولاهما زوال الدنيا وباطلها وغرورها ، والثانية هول الموت ووحشة القبر وشاعة الفناء يقول أنيس المقدسي : " لمن شعر أبي العتاهية يعكس الروح الشرقية القديمة التي تحتقر الدنيا وتنظر إليها كمر زائل لحياة عليا (١) " ، وكان مدار شعره الانسان ، من حيث سعيه الملح وراء الدنيا ، يستكثر من الولد ويجمع المال ، ويشيد الدور ويقبل على السموات ، ثم ماذا ؟ إنه يموت ويصبح كأنه ما كان ، ويتسارى في التراب مع العبيد والعامّة . وهنا يأتي الجانب التعليمي في شعره فهو ينصح إخوانه ويعظهم ، ويوضح لهم النهاية البشعة لدنياهم ، وقد يميل إلى التشاؤم ويجنح إلى تصوير الكآبة والملل من الدنيا .

يقول أبو العتاهية في زوال الدنيا :

المراء آفته هوى الدنيا	والمرء يطغى كلما استغنى
إني رأيت عواقب الدنيا	فتركت ما أهوى لما أخشى
فكرت في الدنيا وجدتها	فاذا جميع جديدها يلبسى
ولقد طلبت فلم أجد كرمها	أعلى بمحاببه من التقوى
ولقد مرت على القبور فما	ميزت بين العبد والمولى (٢)

(١) أمراء الشعر العربي في العصر العباسي : ١٢٢

(٢) الديوان : ٠٩

ويطيل الحديث عن الموت وساعاته المحزنة كقوله :

ننافس في الدنيا ونحن نعييها لقد حذرتناها لعمرى خطوبها
أيا هادم اللذات ما منك مهرب تحاذر نفسي منك ما سيصيها
كأني برهطي يحملون جنازتي إلى حفرة يحثني علي كئيبها
رأيت المنايا قسّمت بين أنفس ونفسي سيأتي بعدهن نصيها (١)

وفي أرجوزته " ذات الأمثال " ينصح بعدم الزيادة على الكفاف بقوله :

حسبك ما تبغيه القوت ما أكثر القوت لمن يموت
إن كان لا يغنيك ما يكفيك فكل ما في الأرض لا يغنيك
الفقر فيما جاوز الكفافا من عرف الله رجا وخافا (٢)

وشعر أبي العتاهية يكذب ما ادعاه منصور بن عمار حين هتف به في مواعظه واتهمه بالزندقة مستدلا بأنه يذكر الموت والفناء ، ولا يذكر الجنة والنار ، ومن يقرأ أشعاره يجد أبا العتاهية يحذر من عذاب النار ، ويرغب في نعم الجنة من مثل قوله :

أسل عن الدنيا وعن ظلها فان في الجنة ظلا ظليل
وان في الجنة للروح والـ ريحان والراحة والسلسبيل
من دخل الجنة نال الرضا مما تمنى واستطاب المقيـل (٣)

ويقول في مصير الانسان :

الموت باب وكل الناس داخله فليت شعري بعد الباب ما الدار ؟
الدار جنة خلد إن عملت بما يرضي الآله وإن قصرت فالنار (٤)

ويستمر أبو العتاهية في ترديد أناشيده العذبة في الزهد والورع ، ويضيف على ذلك من طبعه وعبقريته جمالا وروعة .

وطرق هذا الباب كثيرون من الشعراء ، وأجادوا فيه ، حتى أبو نواس الماجن كانت له روائع في الزهد والوعظ ، وتغلب على زهده روح الخشوع والتضرع والندم ، وهذا أمر مألوف من شاعر ظل يسح ويمح عمراً طويلاً ثم أحس بالندم والتفريط ، يقول عن الموت :

(٢) الديوان : ٤٤٦ .
(٤) الديوان : ١٤١

(١) الديوان : ٤٨
(٣) الديوان : ٢٩٠

فقل لغريب الدار إنك راحل
فلا تحسب الدنيا إذا ما سكنتها
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت
عليك بدار لا يزال ظللها
إلى منزل نائي المحل سحيق
قراراً فما دنياك غير طريق
له عن عدو في ثياب صديق
ولا يتأذى أهلها بضيق (١)

وفي زيارة القبور عبرة لمن اعتبر :

ألا تأتي القبور صباح يوم
فإن سكونها حرك تنادي
فتسمع ما تخبرك القبور
كأن بطون غائبها حضور (٢)

وعلى الانسان أن يعمل صالحا قبل فوات الأوان :

حتى متى يا نفس تغـ
يا نفس توبي قبل أن
والسعي في طلب التقى
ترين بالأمل الكذب
لا تستطيعي أن تتوبي
من خير مكسبة الكسوب (٣)

ومحمود الوراق من الشعراء الذين أكثروا من شعر الوعظ والزهد ، ورددوا تحقير
الدنيا ونعيمها ، فهو ينصح الغافلين ، ويوقظ النائمين الذين تراكت عليهم الذنوب
والخطايا يقول :

يا غافلاً تنو بعيني راقداً
تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي
ونسيت أن الله أخرج آدم ما
ومشاهداً للأمر غير مشاهد
درك الجنان بها وفوز العابد
منها إلى الدنيا بذنوب واحد (٤)

ويصور محمود سعي الناس وراء الدنيا تصويراً طريفاً بقوله :

أظهروا للناس ديناً
وله صلوا وصاموا
لو بدا فوق الثرى
وعلى الدينار داروا
وله حجوا وزاروا
ولهم ريش لطاروا (٥)

(٢) الديوان : ٦١٣

(٤) عيون الأخبار : ٣٧٤ / ٢

(١) الديوان : ٦٢١

(٣) الديوان : ٦١٦

(٥) العقد الفريد : ١٧٥ / ٣

وكان عبد الله بن المبارك (١) من الشعراء الزهاد ، وكان يخرج مع الجيوش الغازية
يجاهد ويحمس الجنود ويعظهم ، وقد كتب أبياتا إلى الفضيل بن عياض حينما لازم
العبادة بمكة المكرمة وترك الجهاد ، ومن هذه الأبيات قوله :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا علمت أنك في العبادة تلعبُ
من كان يخضب جيده بدموعه فنحورنا بدمائنا تتخضبُ
ريح العبير لكم ، وعيرننا وهج السنايك والغبار الأطيبُ (٢)

وينكر ابن المبارك سب الصحابة الكرام ، كما ينكر ضلال بعض الفرق في عصره بقوله :

باني امروء ليس في ديني لغامزة لين ولست على الاسلام طعانا
فلا أسب أبا بكر ولا عمرا ولن أسب معاذ الله عثمانا
ولا أقول علي في السحاب إذا قد قلت والله بهتاننا
ولا أقول بقول الجهم إن له قولا يضارع أهل الشرك أحيانا (٣)

والنفس أمارة بالسوء ، ولذلك يجب عصيانها ، يقول ابن المبارك في ذلك :

رأيت الذنوب تमित القلوب ويخترم العقل إدمانها
يبيح الفتى نفسه في رداه وأسلم للنفس عصيانها (٤)

(١) هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح التميمي ولاء ، ولد سنة ١١٨ هـ
صاحب رحلات كثيرة في طلب العلم ، يعد من كبار الحفاظ في عصره ، وكانت
تشد إليه الرحال للنهل من معين علمه ، كان يخرج مع الجيوش الغازية للبروم
يجاهد ، ويحمس الجنود ، ناسك زاهد ، ألف كتابا عن الجهاد ، وله أشعار
في الزهد والوعظ توفي سنة ١٨١ هـ وانظر ترجمته وأخباره :

الأنساب للسمعاني : ١٧٩ ، وصفة الصفوة : ١٠٩ / ٤ ، والنجوم الزاهرة : ١٠٣ / ٢
والورقة لابن الجراح : ١٤ ، وحلية الأولياء : ٢٧٩ / ٨ ، وتاريخ بغداد : ١٥٢ / ١٠

(٢) النجوم الزاهرة : ١٠٣ / ٢

(٣) طبقات الشافعية : ٢٨٧ / ١

(٤) الورقة لابن الجراح : ١٥

والله سبحانه هو الذي يقسم الأزاق ، يعطي من يشاء ويمنع عن يشاء ، وفي هذا المعنى يقول صالح بن عبدالقدوس^(١) أيضا :

وليس بعجز المرء إخطاؤه الغنى ولا باحتيال أدرك المال كاسبه
ولكنه قبض الآله وبسطه فلا إذا يجاريه ، ولا إذا يغالبه (٢)

وتوجد في ديوان أبي تمام نظرات في الزهد والموعظة ، يقول عن الدنيا وتقلب أحوالها :

أ للـعـمـر في الدنيا تجدد وتعمر وأنت غدا فيها تموت وتُـقـبـرُ
تلقح آمالا وترجو نتائجها وعمرك مما قد ترجيه أقصرُ
وهذا صباح اليوم ينعاك ضوؤه وليلته تنعاك إن كنت تشعُرُ
فلا تأمن الدنيا إذا هي أقبلت عليك فما زالت تخون وتدبرُ (٣)

وينظرة سريعة إلى أهم خصائص الزهد والوعظ نجد سهولة الألفاظ وقرب المعاني ميزتين واضحتين فيما استعرضناه من نماذج ، فلا إغراب في الألفاظ ولا تكلف في المعاني ، فهي قريبة المأخذ سهلة الفهم ، يدركها العامي والمتعلم .

وكان الشعراء يدركون أن هذا الغرض يحتاج إلى السهولة والبساطة ، لأن المخاطبين به في الغالب عامة الناس الذين لا يرتفع مستواهم إلى المعاني العميقة والألفاظ الغريبة .

وكان أبو العتاهية في زهده يمثل هذا الاتجاه أصدق تمثيل ، وهو اتجاه يقوم على السهولة في الألفاظ ، والقرب في المعاني ، ومن يقرأ ديوان أبي العتاهية وزهدياته يجد السهولة والوضوح ، يقول نجيب البهبهتي^(٤) : " كانت أهم خصائص شعر أبي العتاهية (الشعبية) التي تقربه من الأقبام جميعا ثم السهولة في اللفظ ، ولطفه وبعده عن الغموض والتكلف ، وكان أبو العتاهية رأس المدرسة الشعبية " .

(١) هو صالح بن عبدالقدوس بن عبدالله الأزدي بالولاء ، أصله من فارس ، أبو الفضل

شاعر حكيم ، كان متكلم يعظ الناس في البصرة ، وله مع أبي الهذيل العلاف مناظرات ، وشعره كله أمثال وحكم ، اتهم عند المهدي بالزندقة ، فقتله ببغداد وقد عمي في آخر عمره . انظر في ترجمته وأشعاره :

طبقات ابن المعتز : ٦٠ ، والعقد الفريد : ٣٣٨ / ٢ ، وفوات الوفيات : ١٩١ / ١

وتاريخ بغداد : ٣٠٣ / ٩ ، ورسالة الغفران : ١٤٢ ، ومعجم الأدباء : ٦ / ١٢

ولباب الآداب لابن منقذ : ٢٧ ، والأعلام : ٢٧٧ / ٣ ، وضوح الإسلام : ٩٨ / ٣ .

(٢) طبقات ابن المعتز (طبع دار المعارف) : ٩٢

(٣) الديوان : ٥٩٤ / ٤

(٤) تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري : ٣٨٧ .

وموجز القول : أن الزهد غرض جديد من أغراض الشعر التي نشأت في العصر العباسي لشروف وأسباب عديدة ، كان أهمها تيار المـجـتـهـدـون والترف ، واختلاط الأجناس وتعدد المذاهب الدينية .

وقد نظمت في الزهد والمواعظ أشعار كثيرة حملت كثيراً من المعاني الإسلامية فبينت هذه الأشعار غرور الدنيا وزوالها ، وصورت أهوال الموت وما بعده من عذاب أو نعيم ، وأرشدت إلى الأخلاق الحميدة والصفات المثلى التي يجب على المسلم أن يتحلى بها .

وكان أبو العتاهية رائد الزهد والوعظ في العصر العباسي ، بل في العصور الإسلامية كلها . وقد سلك الشعراء مسلكاً سهلاً في زهدهم ووعظهم ، فقربوهما إلى أذهان العامة ، وذلك ببساطة الأسلوب وسهولة التعبير وقرب المعنى وبساطة التركيب .

وكان القرآن الكريم وسنة النبي - صلى الله عليه وسلم - منبعين استقى الشعراء منهما أكثر المعاني في الزهد والوعظ ، كما استفاد الشعراء من الثقافات المختلفة التي ألموا بها ، وكانت هذه الثقافات ملوثة بالحكم والأمثال .

وبنهاية الحديث عن الزهد والمواعظ ينتهي البحث في أغراض الشعر الإسلامي في العصر العباسي الأول ، وقد ألمنا باليسير عن خصائص الشعر الإسلامي الفنية خلال حديثنا الخاص عن كل غرض . ولا بدّ من تخصيص فصل لدراسة أهم الخصائص الفنية للشعر الإسلامي في هذا العصر ، وهذا هو البحث الذي يتلو هذا الحديث مباشرة .

أبرز خصائص الشعر الإسلامي في هذا العصر

سبق الحديث في أول هذا البحث^(١) عن تطور الشعر العباسي من حيث ألفاظه ومعانيه وأساليبه وأغراضه ، وكان هذا الحديث عاما عن أغراض الشعر العباسي كله وفي هذا الفصل لا بد من وقفة قصيرة نتعرف من خلالها على أبرز الخصائص الفنية للشعر الإسلامي في هذا العصر .

تواجه الباحث عن خصائص الشعر الإسلامي مشكلة تشتت القصائد في كتب الأدب ثم يواجه أيضا صعوبة أخرى وهي تداخل الشعر الإسلامي مع غيره في قصيدة واحدة ولا يلم شتات هذه الأشعار إلا وحدة المعنى الإسلامي فيها .
وإذا تأملنا الشعر الإسلامي في العصر العباسي لا نجد أمانا قصائد كاملة ، اللهم إلا في الزهد والمواعظ ، فقد نظم الشعراء فيها قصائد طويلة من الممكن إبراز أهم خصائصها الفنية بسهولة ، أما بقية الأغراض كالمديح والثناء فلا نجد إلا أبياتا مبعثرة ضمن قصائد طويلة تصعب دراسة خصائصها .

وإذا بحثنا عن وحدة الموضوع في القصيدة الإسلامية فلا نجد واضحة إلا في أشعار الزهد والمواعظ ، فقد ألف الشعراء هذين الغرضين بقصائد كاملة وخاصة عند أبي العتاهية وهذه القصائد تبدأ بالزهد وتنتهي به ، وتكون عرضاً لضرور الدنيا وزوالها ، وتصويراً للقبور وأهوالها وتحذيراً من يوم القيامة ، وما يتبعه من جنة أو نار .
وفي بقية أغراض الشعر الإسلامي لا نجد وحدة للموضوع ، وسبب ذلك أننا أخرجنا كثيراً من أبيات القصيدة في هذه الأغراض بسبب خروجها عن الاتجاه الإسلامي الذي ندرسه .

وصدق العاطفة من أبرز الخصائص التي تميز بها الشعر الإسلامي في هذا العصر ، وذلك لأن هذا الشعر تعبير عن عواطف إسلامية جياشة ، وتصوير لمشاعر المسلم الغيور على دينه والحريص على أمته ووطنه .
ويختلف صدق العاطفة قوة وضعفاً باختلاف الأغراض ، ففي الإلهيات نجد الشاعر مبتهلاً خاشعاً أمام الله ، يدعوه ويسأله الصفح والرضوان ، ويعترف بنعمه العظيمة ، ويقر بحجيب صنعه وأبداعه . فلا مجال هنا للمجاملة أو النفاق .

(١) انظر ص ١٧ من هذا البحث وما بعدها .

وقد تضعف العاطفة الإسلامية في المديح ، فيخلع الشاعر على المدوح صفات إسلامية لا توجد فيه ، وقد يبالغ في ذلك إرضاءً للممدوح وإشباعاً لحب المباهاة في نفسه . ولا يمكن أن ننفي صدق العاطفة في المديح برمتها ، بل ننفي الصدق في كثير من قصائده ، ويمثل لصدق العاطفة في المديح الإسلامي بروائع أبي تمام في مديح المعتصم ويزيد بن مزيد ومحمد بن حميد الطوسي ، فعاطفة الشاعر الإسلامية واضحة في هذه المدائح كل الوضوح ، بل نجد عاطفة أبي تمام قوية جياشة فهو متحمس في مدائحه ومراثيه الإسلامية ومدافع بعاطفته الدينية القوية . أما في الزهد والرثاء فيغلب عليهما الصدق ، لأن الشاعر يعبر عن مشاعره الخاصة ونظرته إلى الدنيا ، وهول ما أصابه بفقد هذا الرجل العظيم ، فلا داعي لتزييف العواطف .

والمبالغة ميزة من مميزات الشعر العباسي ، وظهرت أيضاً في المديح والزهد الإسلاميين ، وظاهرة المبالغة ظهرت في هذا العصر ، واتسعت فيما بعد على يد المتنبي وابن الرومي وغيرهما من شعراء العصر العباسي الثاني . وأبونواس وأبوتمام وأبو العتاهية كانوا يبالغون أحيانا ، ويخرجون عن الحد المقبول الذي يقبله العقل ويرضاه الذوق ، ونقرأ لأبي نواس في المبالغة مثل قوله :

وأخفت أهل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التي لم تخلق

ويبالغ أبوتمام في مدح المعتصم بقوله فيه :

لولم يقد جحفا يوم الوفي لخدنا من نفسه وحدها في جحفل لجب

ويبالغ أبو العتاهية في احتقار الدنيا وسرعة زوالها ، ويصل إلى حد التشاؤم الذي يجعل الإنسان ينظر إلى الحياة نظرة سوداء ، يقول في ذلك :

لدا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير إلى تباب

ومن الخصائص المعنوية للشعر الإسلامي اعتماد الشعراء في أكثر معانيهم على القرآن الكريم والسنة النبوية ، وقد يستعينون أحيانا بأحداث التاريخ الإسلامي ونجد لذلك أمثلة كثيرة في زهد أبي العتاهية ومدائح أبي تمام وغيرهما ، وقصيدة

أبي تمام في فتح عمورية مليئة بهذه المعاني ، فنجده يشبه فتح عمورية بانتصار المسلمين في غزوة بدر الكبرى ، ونجد أبا تمام يذكر المقدسات الإسلامية في مديحه لمحمد بن يوسف الثخري كقوله :

لم يحدث نفسا بمكة حتى جازت الكهف خيله والرقميا (١)
حين عفى مقام إبليس ساهي بالمطايا مقام إبراهيم
حطم الشرك حطمة ذكرته في دجى الليل زمزماً والحطيميا (٢)

ووضوح المعنى وقربه من الألفهام أمر اتصف به الشعر العباسي في مختلف أغراضه أما في الشعر الإسلامي فنجد وضوح المعنى وسهولة اللفظ واضحين في الزهد وأبو العتاهية الذي يمثل تيار الزهد كان يتوخى السهولة والوضوح في زهده ، وقد يتعدى ذلك حده فيأتي بالساقط والمردول كما يقول أبو الفرج الأصبهاني (٣) ، ولذلك كان أبو العتاهية رأس المدرسة الشعبية (٤) التي نحت بالشعر منحى السهولة والبساطة ، ومع هذا فشاعرنا صاحب إذن موسيقية يضع الكلمة في موضعها ، ويختار للمعنى ما يناسبه من لفظ ، ونقرأ أشعاره في الزهد فنحس بطبع الشاعر وسهولته .

وطابع السهولة والوضوح الذي وسنا به الشعر الإسلامي قد يتخير إلى العمق والتموض والاغراب في المعنى وذلك في بعض قصائد المديح ، وخاصة مدائح أبي تمام .

واتضح في أساليب الشعراء القدرة على العرض والتعبير ، والاحاطة بالمعنى من جميع جوانبه وتحليله تحليلًا دقيقًا ، وكانت ثقافة الشاعر العباسي الواسعة تساعده على الاستقصاء والعرض لمعناه ، ولو طلب من شاعر جاهلي أن يعبر عن تكذيب المنجمين لنظم في ذلك بيتاً واحداً ، ولكن أبا تمام يفصل القول في هذا المعنى ، ويحيط به من جميع جوانبه بقوله :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريب
والعلم في شهب الأرمح لامعة بين الخميسين لا في السبعة الشهب

(١) الكهف والرقم : موضعان ببلاد الروم

(٢) ديوان أبي تمام : ٢٢٦ / ٣

(٣) الأغاني : ٢ / ٤

(٤) تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري : ٤٠٥

أين

صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
عنهن في صفر الأصفار أو رجب (١)

أين الرواية ؟ أم النجوم وما
عجائبها زعموا الأيام مجفلة

وأبو العتاهية يعرض معانيه عرضاً مفصلاً مملوءاً بالصور والخيال ، فهو ينقلك إلى
القبور حتى تتخيل أنك أمام العظام النخرات وفي وسط ظلام حالك وجدران متلاصقة .
ويطيل الشاعر نفسه في حديثه عن زوال الدنيا ويصورها بصور مختلفة ، ويستقصي
المعنى من جميع جوانبه .

ونلاحظ في الشعر الإسلامي حسن اختيار الالفاظ ، نلكل لفظ مدلول ، ولكل معنى
ما يناسبه من الالفاظ ، وكل عرض يحتاج إلى لفظ ووزن وأسلوب يوافقه .
وكان الشاعر العباسي في هذا العصر يختار اللفظ المناسب ، ويضعه في مكانه ، بل قد يصل
حسن اختيار اللفظ إلى أن يحمل الشاعر ألفاظه أكثر مما تحمله من مدلولات ، ويجعل
السامع مرتاحاً للفظ في مكانه ومتصوراً أن غير هذا اللفظ لا يمكن أن يكون لغير هذا المعنى
الجميل ، ولنستمع إلى علي بن الجهم في مديحة ، ونلاحظ إضافة لفظ الجلالة إلى الخليفة
الذي أضفى على الممدوح كثيراً من معاني المهابة والجلال ، يقول علي في مدح المتوكل :

اليك خليفة الله استقلت قلائص مثل مجفلة النعام (٢)

وانظر إلى كلمة " الردة " (٣) حين يطلقها الشاعر على حركة الاعتزال ، ويشير بذلك أكبر
محنة واجهت الإسلام في أول أيامه ، ويعجب الشاعر بمن قضى على المرتدين حين
يقول مخاطباً المتوكل :

الردة الأولى تني أهلها عنم أبي بكر ولم يكفروا
وهذه أنت تلافيتها فعاد ما قد كان لا يذكر (٤)

والملاءمة بين اللفظ والمعنى دليل على قدرة الشاعر الفنية ، وتمكنه من نواصي الكلام
والمامة بألفاظ اللغة ومتزاداتها . وقد توفر للشاعر العباسي ما لم يتوفر لغيره من
الاطلاع الواسع على ما خلفه السابقون ، فألم بثقافات عصره ، واستطاع أن يلائم بين ألفاظه

-
- (١) الديوان : ٤٠ / ١
(٢) ديوان ابن الجهم : ٧
(٣) انظر علي بن الجهم حياته وشعره لعبد الرحمن الباشا : ٢١٥
(٤) الديوان : ٧٦

ومعانيه ، وأعطى لكل غرض ما يناسبه من اللفظ والأسلوب ، فإذا كان الموضوع يتصل بالحماسة أو المديح أو وصف المخاطر والأهوال أتى له بما يناسبه من الألفاظ الجزلة القادرة على تمثيل الموضوع ، واستعمل له الصيغ التي تستطيع النهوض بالمعنى المطلوب ، وهذا أبو تمام يمدح محمد بن يوسف ، ويأتي بالألفاظ المناسبة للمقام فيقول :

كأن بابك بالبدين بعدهم نوى أقام خلاف الحي أو وتد
بكل منعج من فارس بطل جناجن فلق فيها فنا قصد
لما غدا مظلم الأحشاء من أشر أسكت جاحثيه كوكبا يقد (١)

وان كان الموضوع رقيقا محزنا كالرثاء اختار له الشاعر ما يناسبه من الألفاظ الرقيقة المشيرة للحزن والأسى ، يقول أبو تمام في رثاء محمد الطوسي :

كذلك ما ننفك نفقد هالكا يشاركنا في فقده البدو والحضر
سقى الفيث غيثا وارت الأرض شخصه وإن لم يكن فيه سحب ولا قطر
مضى طاهر الأثواب لم تبق روضة غداة نوى إلا اشتمت أنها قبر

وحرف الرء يعطينا رنة حزينة تلائم الموقف .

ومن الخصائص الفنية للشعر الإسلامي في العصر العباسي الأول سمو الخيال ودقة التشبيه وروعة الاستعارة ، وخاصة عندما يتعرض الشاعر لوصف الجيوش الإسلامية والمعارك العنيفة التي خاضتها ضد أعدائها ، وتصوير هزائمهم وخوفهم من المسلمين . ووصف أبي تمام لحريق عمورية واضح مشهور تتضح فيه الروعة الفنية ، والابداع في التشبيه وذكر الأضداد .

أما خصائص هذا الشعر الموسيقية فقد اتبع فيها الشاعر ما سنه الأقدمون وساروا عليه ، ونظم أشعاره ضمن حدود البحور الشعرية المعروفة ، وقد جرت محاولات للتجديد والخروج عن المألوف من وزن وقافية ، وتزعم أبو نواس وأبو العتاهية تلك المحاولات ، وقد أثر عن أبي العتاهية خروجه عن الوزن والقافية ، وحين سئل عن مخالفته لبحر الشعر قال : أنا أكبر من العروض . وكانت هذه المحاولات بسيطة وضعيفة التأثير

في الموسيقى الشعرية ، ولا ننكر أن الشاعر العباسي - مع سيره على الأوزان القديمة -
قد أبدع في اختيار الموسيقى المناسبة لمعناه وغرضه ، وكان الشعراء يميلون إلى البحور
الخفيفة التي تلائم حياة المدنية والحضارة وبوجه خاص في الزهد ، ويميلون إلى البحور
الطويلة في المديح والرثاء اللذين يتطلبان القوة والجزالة .

وتميز الشاعر العباسي بذوقه الرفيع وإحساسه المرفه ، فكان يراعي جرس الكلمات
الموسيقى ، ويختار ما يناسب الغرض من موسيقى هادئة أو صاخبة . واشتهر البحثري
- وهو من شعراء العصر العباسي الثاني - بموسيقاه الرائعة .
وتكرار الكلمات أو تشابهها ينتج عنه موسيقى حلوة ، يقول أبو العتاهية :

يا راعي النفس لا تغفل رعايتها فأنت عن كل ما استرعت مسئول^١
فالدائرات بريب الدهر دائرة والمرء عن نفسه ما عاش مختول^٢
الحمد لله في آجالنا قصير نبغي البقاء وفي آمالنا طول^(١)

ولاحظ الكلمات (راعي ، رعايتها) و (الدائرات ، دائرة) و (آجالنا ، آملنا) فستجد أن
الشاعر أحدث انسجاماً موسيقياً جميلاً بتكراره لهذه الكلمات .
والتقسيمات الشعرية تضيء على القصيدة روعة موسيقية ، ومثال ذلك قول أبي تمام في المديح :

تدبير معتصم بالله منتقم لله مرتقب في الله مرتغب (٢)

وقد استطاع بذلك الشاعر العباسي أن يبدع في معناه ، ويسمو بخياله ، ويلائم بين
لفظه ومعناه ، واستطاع أن يضع الكلمة في مكانها المناسب بحيث تؤدى للمعنى
المطلوب ، وتثير ما تحمله هذه الكلمة من موسيقى حلوة .
ولا ننفي عن الشعراء التكلف ، ولا ننكر وجود الرديء من المعاني ، ولكن العبرة
بالكثرة ، والحكم على العموم لا على الخصوص .

(١) ديوان أبي العتاهية : ٢٨٧ .

(٢) الديوان : ٨١ / ٥٨ .

الباب الثالث

- ١- آراء وردود
 - أ - اثبات الاتجاه الاسلامي في الشعر العباسي .
 - ب - تمثيل أبي نواس لعصره .
 - ج - زهد أبي العتاهية .
- ٢- نماذج من الشعر الاسلامي في هذا العصر .

خاتمة البحث

آراء وردود

أفردت هذا الفصل لمناقشة مسائل ثلاث :

أولها : اثبات وجود الاتجاه الاسلامي في الشعر العباسي ، ومكانة هذا الاتجاه بين الاتجاهات الشعرية الأخرى ، وأثره في المجتمع الاسلامي .

والثانية : مناقشة رأى الدكتور طه حسين من أن أبا نواس كان يمثل عصره ويمثل العصر العباسي أصدق تمثيل .

أما الثالثة : فتناولت فيها مناقشة ما يراه أحمد الجوارى من أن أبا العتاهية كان يتحدى القرآن الكريم بشعره ، وأنه أراد بزهده أن يصرف الناس عن القرآن الى ما جاء به من زهد ومواعظ .

أ - اثبات الاتجاه الاسلامي في الشعر العباسي :

ان ما تقدم من هذا البحث هو اكبر دليل على اثبات الاتجاه الاسلامي في شعر العباسيين ، وان هذا الاتجاه كانت له مكانته العظمى في نفوس الشعراء وغيرهم ، وهو مع هذا اتجاه هام أثبت وجوده بين اتجاهات الشعر الأخرى في العصر العباسي الأول .

ووجود الاتجاه الاسلامي في الشعر مسألة طبيعية ، لأن أسبابها متوفرة ، ودواعيها موجودة ، ففي كل أمة من الأمم نجد الصراع محتدما بين الحق والباطل وعنيفا بين الطرق المعوجة والطريق المستقيم .

وفي العصر الاسلامي اختلطت الأمة الاسلامية بمختلف شعوبها وحضاراتها ، وجاء كل شعب بما يحمله من المعتقدات والعادات والأخلاق ، فتغير بذلك وجه الدولة الاسلامية سياسيا واجتماعيا وعقليا ، وتأثرت أمة الآسلام بما حملته الشعوب المختلفة من معتقدات وثقافات ، وظهر أثر ذلك على الحياة العباسية بمختلف مظاهرها .

وفي الحياة السياسية اقتبس العباسيون أنظمة أجنبية في الادارة وتنظيم الأعمال من الدواوين وغيرها ، وفي الحياة الاجتماعية انتشرت العادات الفارسية في المجتمع العباسي ، وتأثر العباسيون بما حملته الشعوب الأخرى من عادات وتقاليد من مآكل ومشرب وملبس .

أما في الحياة العقلية فقد فتح الباب على مصراعيه للثقافات الفارسية والهندية واليونانية ، واتسعت حركة الترجمة ، ونقلت أكثر العلوم إلى العربية فاصطبغ الفكر العربي والإسلامي بأفكار الشعوب الأخرى ، وتأثر بما حملته هذه الثقافات المختلفة من علوم وفنون وآداب . وحاولت بعض العناصر الأجنبية فرض سيطرتها على العباسيين وخاصة العنصر الفارسي الذي برز عدد من رجاله في الشعر والعلم والقيادة . وظهر التنافس الشعبي على المناصب في الدولة العباسية ، ومع هذا الاختلاط الثقافي والتأثر بالعنصر الفارسي في الحياة العباسية كثرت الأموال ، وانتشر الترف ، ومآلت الطبقة العليا من الأمة إلى الليونة ، وشاع فيها الشراء الفاحش مع ما يتبعه من انحلال خلقي ، وضعف الوازع الديني ، وكثرت الملل المنحرفة ، وانتشر الاحاد ، وفشت الزندقة ، وأدمت الناس على شرب الخمر ، وشاعت تجارة الرقيق ، وأثارت مجالس اللهو والغناء والقيان كثيرا من الانحلال في مجتمع العباسيين .

وكان لذلك التطور الكبير الذي شهدته الحياة العباسية أثرا كبيرا على الحياة الأدبية والحياة الشعرية بوجه خاص .

وتأثر الشعراء بما كان يجري حولهم في هذه الحياة الصاخبة ، فكان من الشعراء من نصب شعره للدفاع عن الأحزاب السياسية ، ووجد شعراء آخرون تفرغوا للهو والمجون ووصف مجالس الخمر والطرب وما يجري فيها من تمتهك ومجاهرة بارتكاب المحرمات .

وكان للدين الإسلامي والخلق الكريم أنصار مخلصون ، دافعوا عنه ، ووقفوا يجادلون المخرضين الذين أثاروا شكوكا حول مبادئه وتعاليمه ، واستمروا يحذرون الناس من الانحلال الخلقي ، ويوقظون المنغمسين في نعيم الدنيا من غفلتهم .

وأتاح العصر العباسي لهؤلاء جميعا جوا من الحرية الفكرية والاجتماعية ، مما دفع بكثير من المنحرفين إلى المجاهرة بهذا الانحراف المنافي للخلق والدين .

فما هو موقف الأدب الإسلامي من هذا الصراع ؟ وما هو دور الشعر الإسلامي في الدعوة إلى الدين الحنيف والخلق الكريم ؟

ولا بد لنا قبل الإجابة على هذه الأسئلة من تصور الأسباب التي خلقت الاتجاه الإسلامي في الشعر العباسي . وكان من أهم هذه الأسباب ضعف العقيدة الدينية وكثرة النيل من الدين الإسلامي الحنيف ، وانتشار البدع والآراء الضالة ، والمجاهرة

بارتكاب الكبائر في مجالس اللهو وحانات الخمر التي كانت تتعاقب فيها الكؤوس، وتصيح فيها أعذب الأنغام .

وانبرى رجال الدين وأهل العقل والحجاء ومن ساندتهم من الأدباء والشعراء يدافعون عن العقيدة بكل ما أوتوا من قوة الاقتناع والحجاج والآرشاد والتوضيح وإذا كانت مجالس اللهو والخمر قد عمت أرجاء بغداد ، فقد كانت تقابلها مجالس العلم وحلقات الدرس والآرشاد ، وإذا كانت قد وجدت طبقة من الشعراء المجان كأبي مطيع واللبه وحماد عجرد وغيرهم ، فقد وجدت طائفة أخرى تدافع عن الدين والفضيلة ، وتصف معارك الاسلام وتشيد بقيادة المسلمين ، كما تنعى على المنغمسين في لذائذ الدنيا خسرانهم وضلالهم ، ومثل هذه الطائفة عدد كبير من الشعراء كأبي تمام وابن الجهم وأبي العتاهية وعلي بن جبلة وغيرهم .

ووقف أهل السنة بكل ثبات يدحضون الحجة بالحجة ويقىمون البرهان بعد البرهان ويتصدون لطوائف دينية مختلفة من شيعة ومعتزلة ورافضة . وعلى ذلك فالعصر العباسي الأول شهد صراعا عنيفا بين التدين والانحراف ، بين المجون والزهد ، بين الفضيلة والرذيلة ، وكان هذا الصراع بين طرفين القديم الملتزم ، والجديد المتحرر من كل القيود ، وهذا الصراع الرهيب لم تشهد العصور الاسلامية له مثيلا .

وقد ظل الشعر الاسلامي سلاحا من الأسلحة التي وقفت ضد الانحراف والشك والمجون والرذيلة ، ظل هذا الشعر يحذر من الزندقة ويفضح الزنادقة ، ويدعو الى توحيد الله ، ويبين الأدلة القاطعة على وحدانيته وعظمته واستحقاقه للعبادة والخضوع .

رواجه الشعر الاسلامي طلاب الدنيا ومتاعها ، ونهاهم عن الاستسلام لمظاهرها البراقة ، ودعاهم الى العمل الذي يبقى ذخرا ليوم عظيم ، وسجل الشعر الاسلامي بكل فخر واعتزاز انتصارات الأمة على أعدائها ، ووصف المعارك التي خاضتها جيوش الاسلام ، وأشاد بالخلفاء العظام الذين نصبوا أنفسهم للدفاع عن الاسلام ورعاية حقوق المسلمين ، واعتز هذا الشعر أيضا بقيادة المسلمين الأشاوس ، وأثنى على شجاعتهم وثباتهم في ميادين القتال ، كما رثى لشهداءهم الأبرار الذين بذلوا أرواحهم رخيصة في سبيل الله وفي سبيل الحق والعدل والسلام .

ولم ينس الشعراء ما للفضيلة والخلق الكريم من دور كبير في سعادة المجتمع ورفقيه ، فدعوا الى الفضيلة والأخلاق الكريمة التي دعا اليها الاسلام وحذروا من الانحدار بالقيم الانسانية والفضائل الخلقية والتي بانحلالها يضعف المجتمع وتسوده الفوضى وسيطر عليه الاضطراب .

وباختصار فقد أدى الشعر الاسلامي دوره الايجابي في الدفاع عن الدين والفضيلة والخلق الكريم ، واستطاع هذا الاتجاه أن يصور جانباً من أهم الجوانب التي عاشتها الأمة الاسلامية في عصر من أخصب عصورها تقدماً وحضارة وعلماً .
والنماذج الشعرية التي مرت بنا في ثنايا البحث دليل كاف على الدور الكبير الذي اضطلع به الشعر الاسلامي في العصر العباسي الأول .
فهل يصح لنا بعد هذا أن نحكم على العصر العباسي بأنه عصر نفاق وشك ومجون ؟ وهل يجوز لنا أن نجعل أبا نواس وأضرابه يمثلون العصر العباسي أو الشعر العباسي ؟ هذا ما سنتناوله بالبحث والمناقشة في المسألة الثانية من مسائل هذا الفصل .

٢- تمثيل أبي نواس لعصره :

في حديث المرحوم طه حسين عن العصر العباسي والشعر العباسي ما يثير العجب والدهشة ، ويدعو الى الوقوف قليلاً عند الآراء التي تبناها وانطلق بمقتضاها ليصدر أحكامه على العصر العباسي والحياة الأدبية فيه .

ويجب على الباحث قبل أن يدخل في الحديث عن العصر العباسي أن يتصور الحياة العباسية بمختلف مظاهرها السياسية والاجتماعية والثقافية .
لابد للباحث من رسم صورة للمجتمع العباسي ينطلق بمقتضاها الى دراسة الحياة الأدبية والشعرية في هذا العصر ، فلا بد أن يتذكر الامتزاج الذي حدث بين الجنس العربي والأجناس الأخرى ، وما كان لهذا الامتزاج من آثار خطيرة يجب أن نتذكر مجالس اللهو والمجون والانحراف الديني ، ونتذكر مجالس العلم وحلقات الرعظ والارشاد ، وإذا تذكرنا أبا نواس ومطيع وحماد ووالبسة يجب أن نذكر أبا العتاهية وأبا تمام وابن الجهم والوراق وابن المبارك .

وإذا رسخت في أذهاننا صورة واضحة لهذا العصر يحق لنا أن نناقش ما قيل عنه ، وما حكم به عليه ، وتلك الصورة جمعت بين الشك واليقين ، بين الزهد والمجون ، بين التدين والانحراف ، وعبر الشعراء عن هذه الصورة أصدق تعبير .

وقد حكم الدكتور طه حسين على العصر العباسي بأنه عصر شك ومجون ، ورأى أن أبا نواس وزملائه يمثلون هذا العصر أصدق تمثيل . فما هي أقوال الدكتور عن هذه المسألة ؟ وعلى أي أساس أصدر هذه الأحكام ؟ وهل كانت أحكامه مطابقة للحقيقة وموافقة للواقع ؟

يقول طه حسين (١) : " ان العصر العباسي عصر انتقال من بداوة الى حضارة ، ومن سذاجة الى تعقيد ، ومن فطرة خالصة الى علم وفلسفة ، وكان فوق هذا كله عصر امتزاج بأمر مختلفة وشعوب متباينة ، منها البدوي والحضري ، ومنها الجاهل والعالم ، ومنها الغني والفقير ، أفتريد أن تختلط هذه الأمم ، وتمتج هذه الشعوب ، دون أن تضطرب لهذا الاختلاط والامتزاج أخلاق وعادات ونظم ؟ دون أن ينهار بناء قديم ويقوم بناء جديد ؟ أفتريد أن يمتزج العربي والفارسي والمصري والرومي ، وأن تبقى الأخلاق والعادات كما كانت دون أن ينالها فساد أو اضطراب ؟ ذلك شيء تستطيع أن تفترضه في الخيال ، فأما في الحياة الواقعة فليس اليه من سبيل " .

هذه مقدمة طويلة خرج منها الدكتور طه حسين بأن الاختلاط في العصر العباسي كان له أثر بعيد في الحياة العباسية ، وهذه حقيقة مسلم بها ، ولا يستطيع أحد أن ينكر الآثار الكبيرة التي نتجت عن هذا الاختلاط . وعلى أساس هذا الاختلاط ، وما تبعه من تطور وتغيير في الحياة العباسية بنى طه حسين أحكامه على العصر العباسي ، وأصدر أحكامه على الشعراء والحياة الشعرية في هذا العصر .

ونحن نسلم بأن الاختلاط في العصر العباسي كانت له آثاره البعيدة ، وكانت نتائج هذا الاختلاط خطيرة على جوانب الحياة المختلفة ، ولكن هل معنى هذا أن العصر العباسي نبذ القديم ؟ وهل تخلى عن عقيدته وأخلاقه وتقاليدته ؟

هل تغيرت الحياة العباسية تغيرا جذريا لا يرتبط بالماضي ؟ هل انحست العقيدة السليمة والأخلاق الفاضلة بسبب الاختلاط ؟
الجواب على هذه الأسئلة جميعا : لا ، لأنه لا يمكن تصور انقلاب الحياة وتغيرها فجأة وذهاب العقيدة والأخلاق بآمره ، فالتطور واقع ، والتغيير أكيد ، ولكن في حدود .

وعندما نتذكر الشعر العباسي تتبادر الى أذهاننا صورة أبي نواس ومطيع وغيرهما وترسم في مخيلتنا صورة لهوهم ومجونهم وفزلهم الشاذ والمكشوف ويخيل للباحث أن هؤلاء هم صورة العصر ، وهم الطبقة التي تمثل الحياة الشعرية على أقل تقدير ، وبعد بحث وتدقيق يتضح لنا خلاف هذا ، يتضح لنا الجند والتدين ، ويتضح لنا أن هناك اتجاها اسلاميا بجانب هذه الاتجاهات المنحرفة ، ولكن العناية بالاتجاه الاسلامي معدومة ، والدراسة لهذا النوع من الشعر ضئيلة ، مما يجعل اكثر الناس يرسم صورة خاطئة للشعر العباسي في خياله .

يقول الدكتور طه حسين عن العصر العباسي ^(١) : " كان هذا العصر عصر شك ومجون ، وكان عصر رياء ونفاق ، فكان لكثير من الناس مظهران مختلفان : أحدهما للعامة والجمهور ، وهو مظهر الجند والتقوى ، والآخر للخاصة ولأنفسهم ، وهو مظهر اللهو والمجون " ، ويواصل حديثه عن الخلفاء العباسيين فيقول : " ولعلك تذكر ما يروى عن الخلفاء أنفسهم ، وما كانوا يمعنون فيه من لهو ولعب ، دون أن يمنعمهم ذلك من أن يظهروا بمظهر الأئمة الأتقياء ولقد آن لنا ألا نخدع أنفسنا بما كان يخدع به ابن خلدون نفسه في أمر الرشيد وأمثال الرشيد " ^(٢) .

وبعد اتهامه للعصر العباسي كله ، واتهامه للخلفاء ، يضي ليثبت لنا تمثيل أبي نواس للعصر العباسي فيقول : ^(٣) " أفقتن أن الناس يتخذون أبا نواس مثلا للذة ونعيم الحياة ، فيكفون به هذا الكلف اذا لم يكن أبو نواس لسانهم الصادق ومآتهم الصافية ؟ كلا ! ليس من شك في أن صلة حقيقية قوية كانت تصل بين هؤلاء الشعراء وبين طبقات الناس المختلفة ، وتجعل هؤلاء الشعراء تراجمة صادقين لما يخطر لهذه الطبقات من خواطر

(١) حديث الاربعاء : ٣٦ / ٢

(٢) حديث الاربعاء : ٣٦ / ٢

(٣) حديث الاربعاء : ٣٥ / ٢

وما يضطرب في نفوسها من عواطف " .

(١) ثم ينفي طه حسين دور رجال الدين في السيادة وأنهم لا يمثلون أحدا فيقول: " وكان الفقهاء والمتكلمون ورواة الحديث عاكفين على الفقه يستنبطونه ، وعلى الحديث يروونه ، وكانوا في هذا لا ينطقون بلسان أحد ، ولا يعبرون عن رأي أحد ، ولا يمثلون الا العلم الذي يعنون به " .

(٢) وأيرا يسدل ستارا من الشك على ورج العلماء وزهد الأثقياء والصالحين ويقول: " بل ربما وجب علينا أن نشك بعض الشك حين نذكر من هؤلاء العلماء وامعانهم في البر والتقوى ، ولعلك تذكر ما يروى من أخبار يحيى بن اكرم الذي كان قاضيا للمأمون ، ولعلك تذكر ما يروى من أخبار أبي عبيدة معمر بن المثنى وما كان بينه وبين الشعراء " .

(٣) وعلى هذا فشعراء المجون هم الذين يمثلون العصر العباسي ، يقول طه حسين: " واذن فقد كان هؤلاء الشعراء الذين كانوا يجهمون بالشك ، ويعلمون المجون أصدق لهجة وأصح تمثيلا للعصر الذي كانوا يعيشون فيه من العلماء والخلفاء والزراء وكبار الدولة " .

وأبو نواس هو شاعر المجون الأول في العصر العباسي ، فهو الذي يمثل هذا العصر كما يقول ذلك طه : " وإذا أردنا مثلا يختصر العصر ويشخصه ، فهذا المثال هو أبو نواس الذي سنتخذ درسه الخاص سبيلا الى درس هذا العصر كله " (٤) .

وليس أبو نواس وحده هو الذي يمثل العصر العباسي ، بل قصيدة واحدة من قصائد كافية لتمثيل العصر العباسي كله في رأي طه حسين ، واستمع اليه يقول (٥) : " على أننا نستطيع أن نعطيك صورة واضحة من هذا العصر اذا رويانا لك قصيدة من شعر أبي نواس والتي مطلعها :

دع عنك لومي فان اللوم اغراء وداوني بالتي كانت هي الداء

فانظر هذه القصيدة على قصردنا ، كيف تمثل هذا العصر تمثيلا صادقا " . وهذه القصيدة تمثل الحياة الشعرية في بغداد : " ان هذه القصيدة تمثل الحياة الشعرية في بغداد أيام أبي نواس تمثيلا مجملا " .

(٢) المرجع السابق : ٣٦ / ٢

(٤) المرجع السابق : ٣٦ / ٢

(٦) المرجع السابق : ٢٦ / ٢١

(١) حديث الاربعاء : ٣٥ / ٢

(٣) المرجع السابق : ٣٦ / ٢

(٥) المرجع السابق : ٢٦ ، ٢٥ / ٢

تلك هي أقوال المرحوم طه حسين عن العصر العباسي وشعرائه وعلمائه وخلفائه ويهمننا الشعر والشعراء ، وقد أوردت نصوص أقواله مفصلة ومطولة حتى نستطيع أن نناقش هذه الأقوال والآراء والأسباب التي أوردتها تعليلاً لأحكامه ، وستكون هذه المناقشة مبنية على ما سقناه من أقواله .

وقبل البدء في مناقشة هذه الأقوال نضع حقيقة لا يمكن أن ينكرها من يقرأ أقوال طه حسين السابقة ، وهذه الحقيقة هي أن الدكتور شك في الخلفاء والوزراء والشعراء والعلماء والأثقياء ، بل شك في العصر العباسي كله ، ومن يقرأ هذه الأقوال يتصور أن العصر العباسي خلو من الدين واليقين والخلق وعلى هذا فمن هم الذين تمسكوا بالدين في نظره ؟ من هم الذين دافعوا عن الإسلام والفضيلة ؟ من هم الذين ألفوا الفقه والحديث وعلوم الدين ؟ هؤلاء جميعاً لا وجود لهم في نظره لأن العصر عصر شك ونفاق ورياء ومجون كما يقول !!

وبقي شيء واحد لم ينله شك طه حسين وهو هل كان الإسلام موجوداً في العصر العباسي ؟

وبعد اثبات هذا الشك العام الذي روى به طه حسين العصر العباسي ننتقل إلى تفاصيل الأقوال ومناقشتها ، ونستعين بالله على معرفة الحقيقة والوصول إلى الحق والصواب .

أما عن اختلاط العرب بخيرهم ، في العصر العباسي ، وما نتج عن هذا الاختلاط من آثار بعيدة في الأخلاق والعادات والنظم فهذا أمر مسلم به ، لأن مثل هذا الاختلاط لا بد أن تعقبه آثار مختلفة على أي أمة من الأمم ، وقد ظهرت آثار هذا الاختلاط في كل مظهر من مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية ، وسلف تفصيل هذه الآثار في الحديث عن الحياة العباسية في أول هذا البحث . (١)

واتهام العصر العباسي كله بالشك والمجون أمر فيه نظر ، فإذا كان المقصود أن المجون والشك انتشرا في هذا العصر ، ونشأت طبقة من الناس تعيش حياة الشك والمجون فهذا أمر معروف وثابت ، أما إذا كان المقصود ~~بمجرد~~ الشك والمجون أن كل طبقة من الطبقات دخلها الشك وعاشت حياة المجون فهذا ليس بصحيح ، لأن العقل لا يتصور أمة من الأمم تعيش بكامل أفرادها في شك

(١) انظر ص ٦ من هذا البحث وما بعدها .

ومجسون ، ولو حدث ذلك في عصر من العصور فهو أبعد ما يكون في العصر العباسي ، ويكفينا دليلا على حياة الجد والعلم والتدين التي كان العباسيون يعيشونها تلك المؤلفات الضخمة في علوم الدين من فقه وتفسير وحديث ، زيادة على العلوم اللغوية والتاريخ وغيرها .
فهل من الممكن أن يخلف لنا العصر العباسي تلك الثروة الفكرية الهائلة وهو يعيش في شك ومجون ونفاق ؟ بل ان العصر العباسي الأول يعدّ مفخرة من مفاخر التاريخ الاسلامي ودرّة في جبين الحضارة الاسلامية المجيدة .

واتهام الخلفاء العباسيين باللهمو والمجون أمر خارج عن نطاق بحثنا ، ولكنه يتصل به اتصالا غير مباشر ، فالخلفاء العباسيون طبقة من طبقات المجتمع لأخلاقها وعقيدتها دور كبير في أخلاق بقية الطبقات وعقائدهم ، فالناس على دين ملوكهم كما يقولون .

ويتهم طه حسين الخلفاء باللهمو والمجون ، وانهم كانوا يظهرن بمظهرين أحدهما للامة وهو مظهر الجد والتقوى ، والثاني للخاصة ولأنفسهم وهو مظهر اللهمو والمجون ، ويركز على الرشيد والمأمون باعتبارهما أعظم الخلفاء العباسيين ، ويعارض ابن خلدون في تنزيهه للرشيد عن العيوب ، ويقول ان ابن خلدون كان يخدع نفسه .

ومما لا جدال فيه أن الخلفاء كغيرهم من الناس ، كلهم معرضون للخطأ والانحراف ، وليس منهم المعصوم عن الزلل وارتكاب الآثام ، ولكن ما رواه التاريخ عن هؤلاء هو الدليل على تدينهم وأخلاقهم الفاضلة ، ولا نستطيع هنا أن ننفي اللهمو والمجون عن الرشيد والمأمون نفيًا قاطعا ، ولا يمكن أن ننزّه الخلفاء عن الآثام والرذائل لأنهم خلفاء ، وإذا كانوا وصلوا الى أعلى مناصب الدولة فهذا لا يجعلهم معصومين عن الزلل ولا منزهين عن الصفات ، ولكن الحقائق التاريخية هي الحكم في ذلك ، وقد روى عن أغلب الخلفاء العباسيين التدين وتشجيع العلماء ، وكان أشرفهم يتمتع بأخلاق اسلامية عالية ، وجهاد الدولة الاسلامية ضد أعدائها دليل على حرص خلفائها ، وما خلفه العصر كله من علم ودين دليل على صلاح الخلفاء وورعهم ، وقد تستفزه الشهوات فيلبون نداءها ، ولكن الى حين ، فايما منهم القوى أقوى من كل شهوة ، وإذا أشر

عن بعضهم شرب الخمر فقد أثر عنهم جميعا حب الدين وتشجيعه والعمل على نشره ، وإذا وجدت نقطة سوداء في وسط تاريخ مشرق فلا يضيره هذا ، وكفى المرء نبلا أن تعد معاييه .

ودليل واضح على صلاح الخلفاء ما وصلت اليه الحضارة في العصر العباسي الذي لا يزال يحتفظ بأعلى قمة من قم التاريخ الاسلامي حتى اليوم .

والعصر العباسي لا يمكن أن يمثله أبو نواس بحال من الأحوال ، وما قاله طه حسين عن هذا الموضوع يحتاج إلى مناقشة وتمحيص ، فهل من الممكن أن نجعل شخصا واحدا يمثل عصرا كاملا ؟ هل وجدت جميع مظاهر الحياة العباسية في أبي نواس ؟ هل وجد زهد الزهاد ؟ وهل وجد ورع العلماء ؟ بل هل كان أبو نواس يمثل الزنادقة والملحدين ؟ طبعا لا ، لا يمكن أن تجتمع هذه المظاهر في شخص أبي نواس ، وكيف يجتمع النقيضان ؟ الزهد والمجون التدين والانحراف ، وحتى لو وجدت أكثر الميول والأهواء عند أبي نواس فهل كانت هذه الميول تمثل النسبة في طبقات الأمة كما هي عند أبي نواس ؟ لقد كان الشاعر ماجنا مستهترا فهل كان العصر العباسي وأفراده مثل أبي نواس في مجونه ؟ كان أبو نواس يميل إلى الغلمان ، فهل كان هذا الشذوذ موجودا في الناس كلهم ؟ الجواب على هذه التساؤلات بالنفي ، وكيف لنا أن نجعله يمثل العصر العباسي مع أن الواقع ينكر هذا كل الإنكار ، صحيح أن المجتمع العباسي مجتمع انتشر فيه الشك وفشا فيه المجون ، ولكن في طبقة خاصة هي طبقة الوزراء والقواد ومن حولهم من الشعراء والمغنين ، أما عامة الشعب فلا تعرف الشك والمجون ، وكانت تعيش حياة الايمان والعفة والتقوى ، وإذا قرأنا في دواوين هؤلاء المجان أوصاف الخمر وندمائها وسقاتها ، وقرأنا الغزل المكشوف والشاذ ، فيجب أن نقرأ ملاحم البطولة الاسلامية في دواوين شعراء آخرين ، ويجب أن نقرأ ما قيل في الحث على الأخلاق الكريمة ، وما قيل في التحذير من مفاتن الدنيا ، ويجب ألا ننسى دفاع الشعراء عن مبادئ الاسلام ، ولا ننسى تلك الآهيات الرائعة في مناجاة رب العالمين .

وإذا كان الشك والمجون قد فشا في طبقة من الطبقات فان التدين والالتمزام تدين بهما أكثر الأمة ، ان هؤلاء المجان كأبي النواس وأضرابه لا يمثلون

الا الاستسلام لشهوات النفس والانحراف الخلقي الذي وجد في العصر العباسي
وهؤلاء لا يمثلون الدين والوقار والورع .

ان هؤلاء الذين جعلهم الدكتور طه حسين يمثلون العصر العباسي ، لا يمثلون
في الحقيقة سوى اتجاه منحرف من الاتجاهات التي سببها الاختلاط بين العرب
وغيرهم ، هؤلاء يمثلون المجون فحسب ، ويمثلون التمتك والمجاهرة ليس غير ،
انهم يمثلون الطبقة " الارستقراطية " التي دفعها الترف والثراء الى تلبس
شهوات النفس الحيوانية ، ونسيان مطالبها الروحية ، فانغمس هؤلاء في نعيم
الدنيا الزائل ، وتناسوا الدار الآخرة وطاعة الله .
ومادام هؤلاء المجان لا يمثلون سوى طبقة قليلة في عددها من طبقات الأمة
فمن يمثل بقية هذه الطبقات ؟ يمثل بقية الطبقات الزهاد والعلماء والأتقياء
وأصحاب النفوس النقية .

ولو حاول باحث أن يقارن بين نسبة المجون والتدين في العصر العباسي
لوجد أن البون شاسع بين النسبتين ، لأن طبقة المجون تقتصر على نفر من
الشعراء والمغنين والمغنيات ومن ضمهم من الوزراء وكبار رجال الدولة . أما بقية
الأمة فتكون النسبة الكبرى وهي نسبة التدين ، ولا شك أن رقعة المجون في العصر
العباسي قد كبرت ، ووضع من الحبة قبة ، وعكس ذلك صغرت رقعة التدين
وتجاهلها كثير من الدارسين ، طناً منهم أن هذا المجون منتشر في كل الطبقات .

وكون الخلفاء يظهرون بمظهرين مختلفين أحدهما ماجن والآخر متدين ،
فهذا دليل على أن الرأي العام العباسي متدين ينظر الى خليفته نظرة دينية
ويجعله حامي الدين والوطن ، والا فلماذا ينافق الخلفاء اذا كان العصر كله
عصر شك ومجون ؟

وحتى هؤلاء المجان الذين جعلهم طه حسين يمثلون العصر العباسي
- عصر الشك والمجون - حتى هؤلاء كانت تظهر على كثير منهم مظاهر التدين ،
وكان بعضهم يحس بثقل الذنوب فيثوب الى ربه ، ثم يعود الى غيه مرة أخرى
وروائع أبي نواس في الزهد والآلهيات والمديح الاسلامي اكبر دليل على ما نقول .

ثم من قال ان ما روى لفا عن مجنون أبي نواس صحيح ؟ ليس من شك في أن بعض ما روى عنه من المجنون والمجاهرة كان منحولا ، إضافة الناس لعوامل مختلفة مادية ومعنوية ، وديوانه لم يجمع في كتاب واحد في حياته بل جمع بعد وفاته ، وتعرض لكثير من الزيادات . ونوادير أبي نواس جعلت كثيرا من الناس يزيد وينسب الى أبي نواس ما لم يقله ، ذلك لأن الناس يميلون الى النوادر والطرائف ، والأشياء المثيرة للعجب ، ومثل هذا كثير ، فهناك ما روى عن المهلهل وعنتره ومجنون ليلي وجحا وغيرهم اكثر ما روى عن هؤلاء منحول عليهم ومكذوب .

ولو فرض أن ما روى عن مجنون أبي نواس صحيح فمن قال إن الناس قد كلفوا به ؟ ان الذين أعجبوا به وكلفوا به هم مجان أمثاله ، أما غيرهم فقد انكروا عليه ما يفعل ، وحتى لو أعجب الناس به فليس لأنهم يميلون الى المجنون والشك بل لما في حياته وأخباره من الطرف والنوادر التي تثير الضحك وتبعث على التسلية ، ونحن الآن نلتذ بما يروى عن أبي نواس من النوادر التي قد تخل بالدين ، وقد نلتذ بنواديره مع الفقهاء ورجال الدين خاصة .

والنتائج التي خرجنا بها حتى الآن هي أن العصر العباسي لم يكن عصر شك ومجون ، ورقعة المجنون فيه ضيقة جدا بالنسبة للتدين ، وقد بولغ في وصف المجنون في هذا العصر ، وسكت عن الاتجاهات الدينية في الوقت نفسه والخلفاء العباسيون كانوا عظاما مهما نسب اليهم من اللهو ، واذ كان اللهو قد دخل حياتهم فهو قليل بجانب ما أثر عنهم من الجد والتدين .

والشعراء المجان كأبي نواس لا يمثلون العصر العباسي ، بل يمثلون طبقة منحرفة من طبقات المجتمع ، ولا يمثلون أكثر الأمة ، ولا يمثلون التقى والورع والزهد .

واعجاب الناس بأبي نواس ليس مدفوعا بحب المجنون ، ولكنه مدفوع بحب الطرف والنوادر ، والشك في صحة ما روى عن أبي نواس لا يزال قائما .
بقي قولان من أقوال طه حسين ، وهما أن أبا نواس يمثل الحياة الشعرية في عصره وأن قصيدته التي مطلعها : " دع عنك لومي (٠٠٠٠٠) تمثل العصر العباسي تمثيلا مجملا .

وتمثيل أبي نواس للحياة الشعرية في عصره أمر مردود لأن أبا نواس لا يمثل اتجاه أبي تمام مثلا ، كما أن الفرق بين أبي نواس وأبي العتاهية فرق كبير وديوان أبي نواس لا يمكن أن يوافق ديوانا واحدا من دواوين الشعراء في عصره ، بل إن أبا نواس لا يوافق شاعرا من الشعراء في غرض من أغراضه ، وإذا ثبت هذا فكيف نجعله يمثل الحياة الشعرية كلها ؟

ولو وافقنا طه حسين على تمثيل أبي نواس للحياة الشعرية في عصره لوجب علينا أن نبعد الزهد والملاحم الاسلامية والدفاع عن الاسلام عن الحياة الشعرية في هذا العصر ، ووجب أيضا أن نجعل الخمريات والمجون والغزل المكشوف هي الشعر العباسي كله ، وهذا أمر لا يقر به باحث يتحرى الانصاف ويهتم بالشمول والاستقصاء .

إن عواطف أبي نواس تتلف عن عواطف الشعراء ، فهو ميال الى الخمر بل إن الخمر هي الحياة بالنسبة له ، أما بقية الشعراء فلم يثبت ذلك عنهم ، وإذا أثبتنا تمثيل أبي نواس للحياة الشعرية في عصره فمعنى هذا أننا ننفي وجود العواطف الاسلامية التي عبرت عن المشاعر المؤمنة ، وصورت ما يجيش في نفوس المسلمين من عواطف .

وأخيرا لا يمكن أن يمثل الحياة الشعرية شاعر واحد ، بل ولا عدد من الشعراء وإنما يمثل الحياة الشعرية شعراء العصر جميعا الذين عبروا عن مختلف الأخلاق والمعتقدات وصوروا ما شاهدوه وما تأثروا به من أحداث ومن عيوب المنهج التاريخي في النقد عدم الاستقصاء والشمول للاتجاهات المختلفة ، وأغلب الظن أن الدكتور طه حسين وقع في هذا الخطأ وهو عدم الاستقصاء والشمول الذي يعد عيباً من عيوب المنهج التاريخي في النقد .

وإذا كنا رفضنا التسليم بتمثيل أبي نواس لعصره فهل يمكن أن نسلم بتمثيل قصيدة من قصائده للحياة الشعرية في عصره ؟ بالطبع لا ، وهذه القصيدة التي جعلها طه حسين تمثل الحياة الشعرية في عصر أبي نواس هي التي مطلعها :

دع عنك لومي فإن اللوم اغراء وداوني بالتي كانت هي الداء

ويدل الدكتور طه حسين على تمثيلها للحياة الشعرية بقوله أنها تمثل رجل الدين

من جهة ، وتمثل رجل المجون من جهة أخرى ، فأبو نواس يعارض النظام في عدم المغفرة من الله ويقول ان حذر العفو ازراء ، وتمثل هذه القصيدة مذاهب المتكلمين ، لما ورد فيها من معان وألفاظ لا يقولها الا متأثر بحركة المتكلمين والمعتزلة . كل هذا لا يكفي دليلا على تمثيل القصيدة للحياة الشعرية ، ولا داعي للاطالة في هذه المسألة لأن القصيدة مهما بلغ طولها ، ومهما تعددت معانيها واتجاهاتها لا يمكن أن تعبر عن الحياة الشعرية كاملة ، واذ كانت هذه القصيدة قد ظهر عليها التدين والمجون والاعتزال فان الشاعر لا يوءن بهذه الأشياء مجتمعة ، يضاف الى هذا أن القصيدة لا تمثل التدين في شيء ، فكلمها وصف للخمر والساقية واثر الخمر على شاربها ، بل ان التدين الذي ذكره طه حسين يعتبر مجونا لأن الشاعر يتبجح بارتكابه للمعاصي ، ويسخر من هؤلاء الذين يريدون أن يرفعوا العفو عنه .

ومجمل القول في هذه المسألة أن الدكتور طه حسين بالغ مبالغة شديدة في تصوير المجون والشك الذي حدث في العصر العباسي ، حتى وصم العصر كله بهذا المجون ، ثم ناقصه الشمول والاستقصاء حينما حكم بتمثيل أبي نواس لعصره وبالغ في هذا التمثيل حتى جعل قصيدة واحدة تمثل الحياة الشعرية كلها . ويبدو أنه تجاهل التدين والزهد ، وتجاهل الشعراء الذين دافعوا عن الاسلام كما تجاهل تلك المجلدات الدينية الضخمة التي ألفت في عصر الشك والمجون كما يقول .

٣- زهد أبي العتاهية :

لن نتعرض في هذه المسألة الى الحديث عن نشأة الزهد وأسبابه ومعانيه فذلك ما سبقت دراسته في أغراض الشعر الاسلامي ، وفي هذه المسألة سنتوقف عند رأى أحد الباحثين في زهد أبي العتاهية . وسبقت الاشارة الى ما اتهم به ابو العتاهية من نفاق ومجاملة في زهده ، لأنه كان يكثر الذهب والفضة ، وكانت سيرته الاولى ماجنة لا تدل على أن الرجل صادق فيما يردده من أشعار ، وقد تكون هذه التهم سهلة بالنسبة لما اتهمه به أحمد عبدالستار الجوارى من تحديه للقرآن ومحاولته الوصول الى منزلة القرآن في نفوس المسلمين .

يقول الجوارى (١) : وكان أبو العتاهية يصدر في شعره في الوعظ عن موردين :
الأول ما أصابه من الحكمة والفلسفة ، والثاني هو القرآن ، وهذه ظاهرة تستحق
التأمل فهو مرمي عند بعض مؤرخيه بأنه كان يمتنق الزندقة ، فموقفه من القرآن
موقف المتحدى الذي ينازله ويقلده ، وكان يتطلع بشعره في الحكمة والأخلاق الى
منزلة القرآن في نفوس المسلمين والمؤمنين ، ولعل هذا الصلح من أبي العتاهية
كان حلقة في سلسلة من عمل أعداء الاسلام لصناهضته ومحاربتة ، والله بالأسرار عليم .
هذا ما يقوله احمد الجوارى عن زهد أبي العتاهية ، وما ورد عنه من حكمة وأخلاق
وهذا القول يثير العجب والدهشة ، فلو اكتفى الباحث برمي أبي العتاهية
بالزندقة أو النفاق لكان ذلك أمر معقول ، ولكنه تعدى هذا الى أن جعل
أبا العتاهية يتحدى القرآن ، ويتطلع بشعره الى منزلة القرآن في نفوس المسلمين .

ونقول هنا كيف يتحدى شاعر من الشعراء القرآن الكريم وهو الكتاب الذي
أعجز السابقين قبله حتى قالوا انه سحر . فالقرآن الكريم فوق بلاغة كل بشر
لأنه معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والذي تحدى به الله جميع الناس ، ولو
اجتمعوا لعجزوا أن يأتوا بسورة من مثله .

وأبو العتاهية يصرف منزلة القرآن الكريم من البلاغة والفصاحة ويصرف أنه عاجز
عن تحدى هذا الكتاب ، وحتى لو تطاول أبو العتاهية على القرآن الكريم وحاول أن
يقلده أو ينازله فلن ينجح في ذلك ، لأن القرآن الكريم فوق مستوى البشر جميعا .

وأما ما يقوله الجوارى من تطلع أبي العتاهية الى منزلة القرآن الكريم في نفوس
المسلمين فهذا أمر لا تسنده الأدلة والبراهين ، ثم لو فعل ذلك أبو العتاهية
فهل سيصل الى منزلة القرآن ؟ لا ، فالمسلم لا يمكن أن يوازي ما قاله الشعراء
جميعا بآية من آيات القرآن ، وأما من ضعفت عقيدته فقد يستخف بالقرآن ، ويفضل
الشعر عليه .

واستشهد الجوارى ببضعة أبيات اقتبس فيها أبو العتاهية بعضا من معاني القرآن
الكريم ، وهذا دليل لنا لا علينا ، والسبب أن القرآن الكريم كان منهلا للشعراء
جميعا مع اختلاف فيما أخذه كل منهم ، واقتباس أبي العتاهية لبعض معاني القرآن
دليل على ايمانه وتقواه ، ثم أن أبا العتاهية لم يذكر القرآن الكريم بسوء ، ولم يتعرض
لسب النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان في أشعاره كلها موحدا لله ، مثنيا على رسوله

(١) الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجرى : ٢٥١ وما بعدها .

الكريم ، ومعجبا ببلاغة القرآن الذي نزل لهداية البشر جميعا .
ولا يسلم الانسان من النقد أبدا ، لأن أبا المتاحية لو أهمل القرآن ومعانيه
لاتهموه بالزندقة ايضا واحتجوا بأنه لم يتأثر بالقرآن ولا بمعانيه وأنه شذ عن
شعراء عصره . وعينما اقتبس بعض المعاني القرآنية اتهموه بتحدى القرآن ، فهو
متهم في الحالين .

وأخيرا لماذا لا نحمل الأمر على ظاهره ، ونجمل اقتباس الشاعر من القرآن
الكريم دليلا على الايمان العميق والتأثر بمعاني الكتاب الكريم ، ومادام ديوان
الشاعر خاليا من تحدى القرآن ومن سب الرسول صلى الله عليه وسلم أو الدين ، وفي
الوقت نفسه ملوئا بالارشاد والوعظ والدعوة الى الأخلاق الكريمة مادام كذلك
فلماذا نتهمه بتحدى القرآن ، ونرميه بالتطلع الى منزلته في نفوس المسلمين ، مع
العلم أن الشاعر في الحالين لن يستطيع الوقوف أمام القرآن بأبيات هزيلة ، ولن
يستطيع الوصول الى أدنى منزلة للقرآن في نفوس المسلمين .

وأغان أن الباحث قد تجنى على رائد الزهد العربي ، ورماه بتهمة خطيرة
لا أساس لها من جهة ، ولا يستطيع الشاعر تحقيقها من جهة ثانية .

وفي ختام هذا الفصل أسأل الله التوفيق والسداد فيما ناقشته من آراء ، وكل
ألمي أن أصل الى الحق والصواب ، والله الهادي الى سواء السبيل .

* * * * *

نماذج من الشعر الاسلامي في هذا العصر

قال أبو تمام (١) في فتح " عمورية " يمدح الخليفة الممتصم :

السيفُ أصدقُ أنباءٍ من الكتبِ
بيضُ الصفائحِ لا سودُ الصحائفِ في
والعلمُ في شهبِ الأرماحِ لامعةٌ
أين الروايةُ بل أين النجومُ وما
تخرصاً وأحاديثاً ملفقةً
عجائباً زعموا الأيامُ مجفلةً
وخوفوا الناسَ من دهياءِ مظلمةً
وصيروا الأبرجَ العليا مرتبةً
يقضون بالامرِ عنها وهي غافلةٌ
لو بينتَ قطُ أمراً قبلَ موقعه
فتحُ الفتوحِ تعالى أن يحيطَ به
فتحُ تفتحُ أبوابِ السماءِ له
يا يومُ " وقمة عمورية " انصرفتُ
أبقيتَ جدَّ بني الإسلامِ في صعدِ

في حدِّه الحدَّ بينَ الجدِّ واللعبِ
متونهنَّ جلاءُ الشكِّ والريبِ
بين الخميسينِ لا في السبعةِ الشهبِ
صاغوه من زخرفٍ فيها ومن كذبٍ ؟
ليست بنبعٍ إذا عدتَ ولا غربِ
عنهن في صفرِ الأصفارِ أو رجبِ
إذا بدا الكوكبُ الغربيُّ ذوالذنبِ
ما كان منقلباً أو غير منقلبِ
ما دار في فلكٍ منها وفي قطبِ
لم تخفِ ما حلَّ بالأوثانِ والصلبِ
نظمُ من الشمراً أو نُثرُ من الخطبِ
وتبرز الأرضُ في أثوابها القشبِ
عنك المنى حَفلاً معسولةِ الحلبِ
والمشركين ودارَ الشركِ في صبِ

* * * * *

لقد تركتَ أمير المؤمنين بها
غادرتَ فيها بهيم الليلِ وهو ضحى
حتى كأنَّ جلابيبَ الدجى رغبتُ
للنارِ يوماً نليلَ الصخرِ والخشبِ
يشلهُ وسطها صبحٌ من اللهمبِ
عن لونها أو كأنَّ الشمسَ لم تغبِ

(١) ديوان أبي تمام : ١ / ٤٠ - ٧٣ .

ضوءٌ من النارِ والظلماءُ عاكفةٌ وظلمةٌ من دخانٍ في ضحىٍ شحبِ
فالشمس طالمةٌ من ذا وقد أفلتت والشمس واجبةٌ من ذا ولم تجبِ

* * * * *

تديبرٌ معتصمٌ بالله منتقمٌ لله مرتقبٌ في الله مرتفبٌ
ومطعمٌ النصر لم تكهم أسننته يوماً ولا حُجبت عن روحٍ محتجبِ
لم يفزُ قوماً ولم ينهدُ إلى بلدٍ إلا تقدمه جيشٌ من الرعبِ
لولم يقْدُ جحفاً يوم الوضى لفدا من نفسه وحدها في جحفلٍ لجبِ
رمى بك الله برجيها فهدمها ولو رمى بك غير الله لم تصبِ
من بعد ما أشبها واثقين بها واللّه مفتاح باب المعقل الأشبِ

* * * * *

لبيت صوتاً زبطياً هرقت له كأس الكرى ورضاب الخرد المرِبِ
عداك حرّ الثفور المستضامة عن بردِ الثفور وعن سلسالها الحصِبِ
أجبتُه معلناً بالسيف منصلاً حتى تركت عمودَ الشركِ منعفراً
ولو أجبت بغير السيف لم تجبِ ولم تُمرّج على الأوتادِ والطنبِ

* * * * *

خليفةُ الله جازى الله سميعك عن جرثومةِ الدينِ والإسلامِ والحسبِ
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها تنال إلا على جسرٍ من التعبِ
إن كان بين صروفِ الدهرِ من رحمٍ موصولةٍ أو زمامٍ غير منقضبِ
فبين أيامك اللاتي نصرت بها وبين أيام بدرٍ أقرب النسبِ

وقال علي بن الجهم (١) في مدح المعتصم :

اليك خليفة الله استقلتُ	قلائصٌ مثل مجفلةِ النعامِ
وليتَ فلم تدع للدين ثأراً	سيوفك والمثقة الدوامي
نصبتَ " المازيار " على سحوق	و " بابك " والنصاري في نظام
مناظرٍ لا يزال الدين منها	عزيز النصرِ متنوع المرام
وقد كادت تزيع قلوب قوم	فأبرأت القلوب من السقام
وعمورية ابتدرت إليهم	بوادرٍ من عزيز ذي انتقام
وجمع " الزط " حين عموا وصموا	عن الداعي إلى دار السلام (٢)
أطل عليهم يوم عبسوس	تعوذ منه أيام الحمّام
لسيفك دانت الدنيا وشدت	عري الإسلام من بعد انفصام

وقال أبو العتاهية (٣) في الزهد والحكمة من أرجوزته " ذات الأمثال " :

الحمد لله على تقديره	وحسن ما صرف من أموره
الحمد لله بحسن صنعه	شكراً على إعطائه ومنعه
يخير للعبد وان لم يشكره	ويستر الجهل على من يظمّره
خوف من يجهل من عقابه	وأطمع العامل في ثوابه
يا خير من يدعي لدى الشدائد	ومن له الشكر مع المحامد

* * * * *

حسبك ما تبتغيه القوت	ما أكثر القوت لمن يموت
ان كان لا يفنيك ما يكفيك	فكل ما في الأرض لا يكفيك

(١) ديوان علي ابن الجهم : ٧ (٢) الزط : طائفة من أهل الهند

(٢) ديوان أبي العتاهية : ٤٤٤ وما بعدها .

الفقر فيما جاوز الكفاً
ان القليل بالقليل يكثر
من لم يصل فارض اذا جفا
الله حسبي في جميع أمري

من عرف الله رجا وخافا
ان الصفا بالقذى ليكد
لا تقطن للهوى أخاكا
به غناي واليه فقري

وقال أبو العتاهية (١) في التحذير من الدنيا وذكر الموت :

ما يدفع الموت أرداد ولا حرس
هلا أبادر هذا الموت في مهل
يا خائف الموت لو أمسيت خائفه
أما يهولك يوم لا دفاع له
أما تهولك كأس أنت شاربها
اياك اياك والدنيا ولذتها
ان الخلائق في الدنيا لو اجتهدوا
ان المنية حوض أنت تكرهه
مالي رأيت بني الدنيا قد افتتنوا

ما يفلب الموت لا جن ولا أنس
هلا أبادره مادام بي نفس
كانت دموعك طول الدهر تنجس
ان أنت في غمرات الموت منغمس
والعقل منك لكوب الموت ملتبس
فالموت فيها لخلق الله مفترس
أن يحبسوا عنك هذا الموت ما حبسوا
وأنت عما قليل فيه تنغمس
كأنما هذه الدنيا لهم عرس

وقال أبو نواس (٢) في التضرع والدعاء :

يا رب ان عظمت ذنوبي كثرة
ان كان لا يرجوك الا محسن

فلقد علمت بأن عفوك أعظم
فبمن يلون ، ويستجير المجرم ؟

(١) الديوان : ١٨٨

(٢) الديوان : ٦١٨

أدعوك رب كما أمرت تضرعاً فإذا رددت يدي فمن ذا يرحم
مالي اليك وسيلة الا الرجاء وجميل عفوك ثم أني مسلم

وقال أبو نواس (١) من قصيدة بعنوان " النفس والدينا " :

لا تفرغ النفس من شغل بدنياها رأيته لم ينلها من تمناهها
انا للنفس في دنيا مولية ونحن قد نكتفي منها بأدناها
حذرتك الكبر لا يعلقك ميسمه فانه لم يلبس نازعتسه الله
يا بوءس جلد على عظم مخرقة فيه الخروق اذا كلمته تاهها
متن على نفسه راض بسيرتها كذبت يا خادم الدنيا ومولاهها
اني لأمقت نفسي عند نخوتها فكيف آمن مقت الله ايهاها
أنت اللئيم الذي لم تعد همته ايثار دنيا اذا نادته لبهاها
يا راكب الذنب قد شابت مفارقه أما تخاف من الأيام عقابهاها ؟

وقال علي بن الجهم (٢) لما حبسه المتوكل ونفاه الى خراسان ، وأمر عبد الله بن طاهر بصلبه :

لم ينصبوا بالشاذياح صبيحة الا ثنين معموزا ولا مجهمولا
نصبوا بحمد الله ملء عيونهم شرفا وملء صدورهم تجيلا
ما عابه أن بز عنه لباسه فالسيف أهل ما يرى مسلولا

(١) ديوان أبي نواس : ٦١٣

(٢) تكملة ديوان ابن الجهم : ١٧١ ، ١٧٢

نعم وان صعبت عليه قليلا
وكفى بريك ناصرا ووكيلا
خولتموه - وسامسة وقبولا
وجنانه وبيانه تبديلا
ما النقص الا أن يكون جهولا
أوضحتم ذنبا عليه جليلا
غير الجميل من الأمور جميلا

ان المصائب ما تعدت دينه
والله ليس بغافل عن أمره
لن تسلبوه - وان سلبتم كل ما
هل تملكون لدينه ويقينيه
لم تنقصوه وقد ملكتم ظلمه
كادت تكون مصيبة لو أنكم
ان كان سفّ الوالدنيعة أورأى

وقال أبو تمام (١) يمدح المأمون :

حتى ودنا أننا أيتام
لذوى تجهضها له استسلام
فكأنما حسناته آثام
ملك عليه في القضاء همام
في الأرض مذ نيظت بك الأحكام
والكفر فيه تفرس وعرام
أسرجن فكرك والبهادر ظلام
حسن اليقين وقادة الاقدام
والله فيه وأنت والاسلام

وتكفل الأيتام عن آباءهم
مستسلم لله ساعس أمسة
يتجنب الآثام ثم يخافها
يا أيها الملك الهمام وعدله
ما زال حكم الله يشرق وجهه
لما رأيت الدين يخفق قلبه
أوريت زند عزائم تحت الدجى
فنهضت تسحب ذيل جيش ساقه
ما كان للاشراك فوزه مشهد

خاتمة البحث

لقد كان العصر العباسي الأول من أزهى العصور الاسلامية على الاطلاق ،
فقد بلغت الدولة الاسلامية في هذا العصر قمة المجد في مختلف مظاهرها
وخلف لنا العباسيون ثروة فكرية هائلة .
وكان من أسباب هذا التطور انتقال الخلافة الى بغداد ، واختلاط العرب بغيرهم
من الأجناس الأخرى ، ثم ما لقيه العلماء وجميع البارزين من تشجيع كبير من قبل
الخلفاء وذوى السلطان .

وتطور الشعر العباسي في مختلف مظاهره ، واتجه الشعراء الى السهولة
والوضوح وابتعدوا عن الغرابة في الالفاظ والركاكة في الأساليب ، واهتموا بتجويد
المعاني واخترع النادر منها ، ولائم الشاعر بين حياته المتحضرة وبين ماضيه القديم
واتخذ من القديم أساسا ثم أضفى عليه ما يناسب عصره ، وطبع شعره بطابع الحضارة
التي يعيشها .

ونظم الشعراء في الأغراض القديمة ، ولكن مع تطوير يلائم حياتهم الجديدة
واستحدثوا أغراضا جديدة فرضتها عليهم الحياة العباسية . وبذلك وصل الشعر
العربي في هذا العصر الى القمة في الابداع والجودة ، وجمع الشعراء بين جزالة
القديم وسهولة الجديد ، بين خشونة البداوة ونعومة الحضارة ، واستطاعوا الملاءمة
بين الماضي والحاضر ، وصوروا المجتمع بكل ما فيه من مظاهر وحوادث ونظم . وكان
ذلك كله بأسلوب سهل واضح يبدو عليه ابداع الفنان ، وعبقرية الشاعر والهام
الحياة المتحضرة .

وحظيت اتجاهات الشعر المختلفة في هذا العصر بنوع من دراسة الباحثين واهتمام الأدباء ، ولكن الاتجاه الاسلامي في الشعر العربي بوجه عام لم يلق شيئا من العناية والدراسة ، وبقي الأثب الاسلامي مبعثرا في صفحات الكتب ، وبقي الاتجاه الاسلامي خافيا على كثير من الناس ، حتى أن الدارس للشعر العباسي قد لا يتصور الا مجون أبي نواس وأمثاله .

ومفهوم الشعر الاسلامي هو كل شعر اتضحت فيه العاطفة الاسلامية الصادقة ووسمته المعاني القرآنية ، وظهر عليه تصور الكون والحياة والأشخاص من خلال الاسلام ومثله العليا .

وقد سجل الشعر العباسي في عصره الأول صفحة مشرقة من صفحات تاريخ الشعر الاسلامي ، وعبر عن عواطف الأمة الاسلامية أصدق تعبير ، كما صور معارك الاسلام ضد أعدائه بكل اتقان وابداع ، ودخل الشعر الاسلامي في خضم الصراع بين الحق والباطل ووقف الشعراء يدافعون عن مبادئ الدين ، ويؤيدون ذلك بالبراهين الساطعة ، ويردون على الزنادقة والمنحرفين وطلاب الدنيا .

ولم يسكت الشعراء عن المظاهر الاجتماعية التي انتشرت في عصرهم ، بل أعلنوا مواقفهم صريحة من هذه المظاهر ، وذلك من خلال الاسلام ومثله العليا ، فبينوا ضلال المنحرفين عن الطريق المستقيم ، ودعوا المنغمسين في ملذات الدنيا الى عبادة الله والاستعداد ليوم الجزاء والحساب .

وحظيت الأخلاق الاسلامية الفاضلة باهتمام الشعراء ، وراحوا يرددون تلك القضايل والأخلاق الحميدة في مدائحهم ، ويشيدون بمن يتحلى بمثل هذه الأخلاق .

وباختصار فقد عاش العصر العباسي صراعا بين التدين والانحراف ، وصور شعراء الاسلام الاتجاه الاسلامي ، وعبروا عن عواطف الأمة الدينية كما عبروا بذلك عن عواطفهم الاسلامية الجياشة .

وتعددت أغراض الشعر الاسلامي ، فمنها ما سار فيه الشعراء على طريقة القدماء من مدح ورثاء وهجاء ، ومنها ما هو جديد نشأ في العصر العباسي كالزهد والمواعظ . وقد ابتهل الشعراء الى ربهم في الاتهيات ، وأقروا بعظيم صنع الله في الكون الكبير ودعوا الى توحيدِه واخلاص العبادة له .

وردد الشعراء في مدائحهم ما اتصف به الخلفاء والوزراء والقواد من صفات اسلامية وأخلاق فاضلة . وأثنوا على شجاعتهم وتضحياتهم وحرصهم على رفع راية الاسلام ، وقد سجلوا بذلك أروع الصفحات المشرقة في البطولة والتضحية والأخلاق .

وتصدى الشعراء لأعداء الاسلام الذين أضلّتهم البدع واتبعوا مذاهب دينية منحرفة فانكر الشعراء تلك المذاهب الهدامة ، ودعوا الى القضاء عليها ، وارشاد من اعتنقها . وسجل الشعراء في رثائهم صورة حية لشهداء المسلمين الأبطال ، صورة يملؤها الاعتزاز والفخر بهؤلاء الأبطال ، ويشوبها الحزن والأسى لفقد هؤلاء المعظام من الرجال .

ودخل الشعراء معترك الحياة الاجتماعية ، وعبروا عن مظاهرها من خلال نظرة الاسلام للمثل والأخلاق ، وكانت قصائدهم تحث على الفضيلة من صدق وأمانة وعفة ومروءة ، وتحذر من كل رذيلة وتعيب على هؤلاء المنحرفين تنكيبهم للطريق السوي . ووقف الشعراء في وجه طلاب الدنيا ، الذين لا يهمهم الا اللذة ، ولا يسيطر على عواطفهم الا هب المال وتلبية الشهوات ، فراحوا يحذرون كل مفرور بمظاهر الدنيا البراقة ، ويوقظون كل غافل عن الدار الآخرة ، ويوضحون أن الأعمار قصيرة وأن الموت

قريب ، فالحياة لا تستأهل هذا السعي الطح وراءها على حساب اهمال أمور الآخرة .

وبذلك أضاف الشعراء في أغراضهم الاسلامية رصيذا فكريا هائلا ، يضاف الى ما سجله الشعر العربي في اتجاهاته الأخرى من ثروة أدبية ضخمة . واحتل الاتجاه الاسلامي مكانا بارزا في صفحة الشعر العباسي ، وحظى باهتمام كبير من أعلام الشعراء وغيرهم ، ووقف هذا الاتجاه يصارع الانحراف والالحاد والمجون والانغماس في نعيم الدنيا .

وشارك أعلام الشعراء في التعبير عن المواطن الاسلامية كأبي تمام وأبي العتاهية وابن الجهم وغيرهم وحتى هؤلاء المجان كانت لهم فترات صحو يستيقظون فيها ، فتسمو أرواحهم الى خالقها ، وتسجل قصائد هم روائع في الزهد والمديح .

والمجون الذي انتشر في العصر العباسي بالغ الأدبا في تصويره ، وأعطوه من الاهتمام اكثر مما يستحق في الواقع ، حتى أن الدكتور طه حسين وصم العصر العباسي كله بأنه عصر شك ونفاق ومجون ، ثم جعل أبا نواس وأضرابه من المجان يمثلون العصر العباسي والحياة الشعرية فيه ، مع أن هؤلاء لا يمثلون سوى اتجاه منحرف نشأ لظروف مختلفة في العصر العباسي ، وهؤلاء لا يمثلون سوى طبقة من طبقات المجتمع ، ألا وهي الطبقة " الأرستقراطية " التي سيطر عليها الترف ، ومالت الى شهوات الدنيا .

ومن الخطأ أن نجعل شاعرا واحدا يمثل عصرا بكامله ، أو نجعله يمثل الحياة الشعرية في عصره كما فعل ذلك طه حسين عندما جعل أبا نواس يمثل الحياة الشعرية في بغداد . وقد اتهم أحمد الجوارى أبا العتاهية بأنه كان يتحدى القرآن ، ويتطلع الى منزلته في نفوس المسلمين ، وهذا الاتهام يكذبه شعر الشاعر وينكره ما كان للقرآن الكريم من منزلة

بلاغية عظيمة ، وما كان للقرآن الكريم من منزلة عظيمة في نفوس المسلمين لا يمكن أن يضعفها شعر شاعر أو نثر مهما كانت منزلته في البلاغة .

ومن العجب أن يعلل الجوارى لرأيه السابق بأن أبا العتاهية يورد كثيرا من معاني القرآن في شعره ، وهذا دليل على ايمان الشاعر العميق وتأثره بالقرآن ، وظهور هذا التأثير في شعره .

والشعر الاسلامي في هذا العصر سجل أروع الصفحات في تاريخ الشعر الاسلامي وعبر بكل صدق وأمانة عن عواطف المسلمين وآمالهم وآلامهم وصور أخلاق المسلم المثالية ورسم لنا صورة للصراع العنيف بين الحق والباطل ، ذلك الصراع الذي اشتد في العصر العباسي ، وصوره الطرفان بكل ما أوتي كل منهما من قوة البيان .

وألمي كبير بعد كتابة هذه الصفحات أن أكون قد سلطت الأضواء على اتجاه هام من اتجاهات الشعر العربي ، في عصر من أزهى العصور الاسلامية . كما أرجو أن يكون القارئ بعد قراءته لهذه الصفحات قد أخذ فكرة واضحة عن الاتجاه الاسلامي الذي يمر به الأديباء مرور الكرام في دراساتهم الشعرية

وكننت في كل سطر من سطور هذا البحث أحاول إبراز الاتجاه الاسلامي في الشعر العباسي ، وذلك من خلال الوقائع والأحداث في هذا العصر ، ومن صميم ما قاله الشعراء تعبيرا عن الحياة التي يعيشونها .

الفهارس

- ١- فهرس الاعلام
- ٢- فهرس تراجم الشعراء
- ٣- فهرس الأماكن والبلدان
- ٤- فهرس المراجع
- ٥- فهرس الموضوعات

ملاحظات :

- (١) الفهارس مرتبة ترتيبا هجائيا .
 - (٢) في فهرس الاعلام اعتمدت على الشهرة سواء كانت بالاسم أو باللقب أو بالكنية .
 - (٣) الرمز بالحرف " هـ " يعني أن العلم أو المكان موجودان في الهامش
-

فهرس الاعلام

- أ -

- آدم عليه السلام : ٤٧
الآمدى (الحسن بن بشر) : ٥٣هـ
أبان بن عبد الحميد اللاحقى : ٢٨ ، ٢٩ ، ٥٧
ابراهيم بن أدهم :
ابراهيم (عليه السلام) : ٩٨
ابراهيم بن عبد الله : ٦٤هـ
ابراهيم المازنى : ٥٠هـ
ابراهيم بن موسى : ٨
ابراهيم الموصلى : ١١
ابليس : ٩٨
أحمد أمين : ٢ ، ٣
أحمد بن حنبل : ٦٢ ، ٦٥
أحمد الجوارى : ٤ ، ١٠٠هـ ، ٧٦هـ ، ١٠٣ ، ١١٦ ،
١١٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩
أحمد بن أبى دواء : ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥
أحمد شوقى : ٤٧
أحمد عبد المجيد الفزالى : ٤٠هـ
أحمد بن يوسف الكاتب : ٤٧هـ
الأخطل : ٦٠
أسامة بن منقذ : ٩٤هـ
اسحاق بن ابراهيم الموصلى : ١١
اسحاق بن حسان الخرىمى : ٧٤
أشجع السلمى : ٢٣ ، ٥٦ ، ٥٧

- ابن الأشعث (عبد الرحمن) : ٦
الأمين (محمد بن هارون) : ٨ ، ١٢ ، ٥١ ، ٧٢
أنيس المقدسي : ٣ ، ٧٦ ، ٨٥ ، ٨٩

- ب -

- بابك الخرمي : ٩ ، ٥٤ ، ١٢١
البارودي (محمود سامي) : ٤٧
بجير بن زهير بن أبي سلمي : ٣٠
البحترى (الوليد بن عبيد) : ٢٧
البديمي : ٥٣/هـ
بشار بن برد : ٣ ، ١٢ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٧١
بشر المريسي : ٦٥
أبو بكر، عبد الله بن أبي قحافة (رضي الله عنه) : ٦٥ ، ٦٩ ، ٦٢ ، ٩٩
البوصيري : ٤٧

- ت -

- أبو تمام (حبيب بن أوس) : ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٥ ، ٤٩ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٣ ، ٩٧ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠١ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٥ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٨ ، ١٢٨

- ث -

.....

- ج -

٦٥	:	جبريل (عليه السلام)
٩٢/هـ	:	ابن الجراح
٦٠	:	جرير
٦٤	:	جعفر الصادق
٩٢	:	الجهم بن صفوان
٨٥	:	جورجي زيدان
٢	:	جوستاف جرونهام

- ح -

٦٥	:	أبو الحجاج الأعرابي
٣٠، ٣٨، ٤٥	:	حسان بن ثابت
٥٧	:	الحسن بن سهل
٧	:	الحسن بن قحطبة
٩٣/هـ	:	حسين الزمعي
٢٦	:	الحسين بن الضحاك
٢٤، ٢٦، ٥٠، ٥٥، ٦٠، ١٠٥، ١٠٦	:	عماد عجرد

- خ -

٥٣، ٥٧	:	خالد بن يزيد
٥٣/هـ	:	الخطيب التبريزي
٨، ١٠، ١١١	:	ابن خلدون (عبد الرحمن)
٢	:	ابن خلكان (احمد بن محمد)
٨٠	:	الخليل بن أحمد
٤٢/هـ	:	خليل مردم
٦٨	:	الختساء (تماضر بنت عمرو)

— ١٣٤ —

— ج —

- دعبل بن علي الخزاعي : ٣ ، ٢٦ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٦٩
أبودلف العجلي : ٥٣ ، ٥٧
ديك الجن : ٢٦ ، ٤٨

— ز —

ذو النون المصري (ابراهيم بن ثوبان) : ٤٢

— ر —

- رباح (شيخ) : ٢٨
الرشيد (هارون بن محمد) : ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٥ ، ٢٣ ، ٢٤ ،
٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٦ ، ٧١ ، ٧٤ هـ /
٧٦ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١٠٨ ، ١١١ .
ابن الرومي (علي بن العباس) : ٩٧

— ز —

- ابن الزبير (عبد الله) : ٦
وُكي المحاسني : ٤٠ هـ
ابن الزياد : ٦٣

— س —

- سامي الدهان : ٥٢
سفيان الثوري : ١٢ ، ٧٨
سفيان بن عيينه : ١٢ ، ٧٨
سكن (جارية الوراق) : ١٠
سلم الخاسر : ١٠ ، ٢١ ، ٥٧ ، ٨٥

- أبو سلمة الخلال : ٨٠٧
ابن السماك : ١٢
السمعاني (عبد الكريم بن محمد) : ٩٢ هـ

- ش -

- الشافعي (محمد بن ادريس) : ٩٣
شاكر هادي شكر : ٦٤ هـ
شكري فيصل : ٣٩ هـ ، ٨٤
شوقي ضيف : ٣ ، ١٨ ، ٧٦ هـ ، ٨٣ ، ٨٥
أبو الشيبخ الخزاعي : ٣

- ص -

- صخر بن عمرو الشريد : ٦٨
الصولي (محمد بن يحيى) : ٤٧ هـ ، ٥٣ هـ

- ض -

... ..

- ط -

- طه الحاجري : ٥٠ هـ
طه حسين : ٣ ، ٤ ، ٣ ، ١٠ ، ٦ ، ١٠ ، ٧ ، ١٠ ، ٨ ، ١٠ ، ٩ ، ١٠
١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ،
١١٦ ، ١٢٨
الطبري (محمد بن جرير) : ٢ ، ١٠ هـ ، ١٢ هـ ، ٥٧ هـ ، ٧٤ هـ

- ظ -

... ..

- أبو العباس السفاح : ٧
عباس محمود العقاد : ٤٠ هـ ، ٥٠ هـ .
عباس مصطفى : ٤٠ هـ
العباس (عبد الرحيم) : ٢
عبد الصاحب الدجيلي : ٤٦ هـ
عبد الرؤوف المناوي : ٩٣ هـ .
عبد الرحمن الباشا : ٤٢ هـ ، ٦٣ هـ ، ٩٩ هـ .
عبد الرحمن بن درهم : ٩٣ هـ .
عبد الرحمن صدقي : ٤٠ هـ .
عبد الستار أحمد فراج : ٧٢ هـ .
عبد السلام الخارجي : ٨
عبد الكريم الأشتر : ٤٦ هـ
عبد الله بن رواحه : ٣٠
عبد الله بن طاهر : ٧٣ ، ١٢٣
عبد الله بن علي (عم المنصور) : ٨
عبد الله بن المبارك : ١٢ ، ٣٩ ، ٨٠ ، ٨٨ ، ٩٢ ، ١٠٦ .
العتابي (كثوم بن عمرو) : ١٦
أبو العتاهية (اسماعيل بن القاسم) : ٣ ، ٤ ، ١٣ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ .
عتبه (جارية المهدي) : ٨٦ .
عثمان بن خريم الغطفاني : ٧٤ هـ .

- عثمان بن عفان (رضي الله عنه) : ٩٢، ٦٩ :
علي بن جبله : ١٠٥ :
علي بن الجهم : ٣ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٥٦ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٧٣ ،
٩٩ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٨ .
علي احمد الزبيدي : ٣ :
علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) : ٦ ، ٤٧ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٩٢ .
علي بن عبد الله بن عباس : ٦ :
عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : ٦٥ ، ٦٩ ، ٩٢ :
عمر بن عبد العزيز : ٧ ، ٦٨ :
عمر فروخ : ٤٠ هـ ، ٥٠ هـ .
عمرو بن عبيد : ١٢ :
أبو عمرو بن العلاء : ١٨ :
عنان (جارية الناطقي) : ١٠ :

— ف —

- فؤاد ترزي : ٥٢ هـ .
أبو الفرج الأصبهاني : ٢ ، ٩٨ :
الفرزدق : ٦٠ :
الفضل بن الربيع : ١٠ :
الفضل بن سهل : ٥٧ :
الفضل بن يحيى : ٥٧ :
الفضيل بن عياض : ١٢ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٩٢ :

— ق —

- القاسم بن يوسف : ٤٧ :
ابن قتيبه (محمد) : ٢ :

- ك -

كسرى : ٧٣ :
الكميث بن زيد الأسدي : ٦٨ :

- ل -

لويس شيخو : ٥/٣٩ هـ

- م -

المأمون (عبد الله بن هارون) : ٥٣ ، ٤٩ ، ٢٥ ، ١٦ ، ١٥ ، ٩ ، ٨ :
١٠٩ ، ٨٥ ، ٨٤ ، ٧٦ ، ٦٥ ، ٦١ ، ٥٤ :
٠ ١٢٤ ، ١١١ :
مازيار بن قارن : ١٢١ ، ٥٤ ، ٩ :
مالك بن دينار : ٧٨ :
متمم بن نويره : ٦٨ :
القتبي (أحمد بن الحسين) : ٩٧ ، ٢٤ ، ٢٢ ، ١٧ :
المتوكل (جعفر بن عمر) : ١٢٣ ، ٩٩ ، ٥٦ ، ٤٩ :
محمد بن احمد بن أبي دؤاد : ٠ هـ / ٦٤ :
محمد جميل سلطان : ٠ هـ / ٥٢ :
محمد بن حميد الطوسي : ١٠٠ ، ٩٧ ، ٧٣ ، ٧١ ، ٢٥ ، ١٠ :
محمد أبوزهره : ٠ هـ / ٩٣ :
محمد بن الطاهر عاشور : ٠ هـ / ٥٠ :
محمد بن عبد الملك الزيات : ٥٧ :
محمد عبد المنعم خفاجي : ٨٥ ، ٥ / ٧٦ ، ٢٨ ، ١٨ ، ٣ :
محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) : ٤٧ ، ٤٦ ، ٤٥ ، ٣٠ ، ٨ ، ١ :
٠ ١١٧ ، ٩٥ ، ٧٢ ، ٦٨ ، ٦٤ ، ٦٣ ، ٦٢ ، ٥٨ :
٠ ١١٨ :
محمد بن علي بن أبي طالب (ابن الحنفية) : ٦ :
محمد بن علي بن عباس : ٦ :

- محمد بن أبي العتاهية : ٨٠
محمد بن كناسة : ٠ ٩٣ ، ٨٨ ، ٨٠ ، ٣٩
محمد مصطفي هداره : ٠ ٨٨ ، ٨٣ ، ٧٨ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٢
محمد عبده عزام : ٠ ٥٣ / هـ
محمد بن يوسف الثغري : ٠ ١٠٠٠ ، ٥٨ ، ٥٧ ، ٥٣ ، ٢٢
محمد يوسف نجم : ٠ ٥٦ / هـ
محمود الوراق : ٠ ١٠٦ ، ٩١ ، ٨٨ ، ٨٠ ، ٤٢ ، ٣٩ ، ١٠
المرزباني (محمد بن عمران) : ٢
مروان بن أبي حفصه : ٠ ٥٧ ، ٥٦ ، ٢٨ ، ١٠
مروان بن محمد : ٧
المسمودي : ٠ ٥٧ / هـ
أبو مسلم الخراساني : ٨ ، ٧
مسلم بن قتيبه الباهلي : ٥١
مسلم بن الوليد (صريع الغواني) : ٠ ٥٨ ، ٥٢ ، ٤٩ ، ٤٨ ، ٤٥ ، ٢٥
مصطفي عبد الرزاق : ٠ ٩٣ / هـ
مطيع بن اياس : ٠ ١٠٨ ، ١٠٦ ، ١٠٥ ، ٨٤ ، ٢٦ ، ١٢
معاوية بن أبي سفيان : ٧
معاوية بن عمرو الشريد : ٦٨
ابن المعتز (عبد الله بن محمد) : ٠ ٨٥ ، ٥٢ / هـ ، ٢٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢
المعتصم (محمد بن هارون) : ٠ ٩٧ ، ٥٦ ، ٥٥ ، ٥٤ ، ٥٣ ، ٢٣ ، ٢٢ ، ٩
١٢١ ، ١٢٠ ، ١١٩ ، ١٠١
مصر بن الشثني (أبو عبيده) : ١٠٩
معن بن زاعده : ٠ ٥٧ ، ٥٦ / هـ ، ١٠
منصور بن زياد : ٧١
المنصور (عبد الله بن محمد ، أبو جعفر) : ٠ ١٠ ، ٨ ، ٧
منصور بن عمار : ٠ ٩٠ ، ٨٥
منصور النمري : ٠ ٦٨ ، ٤٨ ، ١٦

المهدى : ٨ ، ١٠ ، ١٥ ، ١٩ ، ٥١ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٤٨ هـ / ٥٦
ميسره : ٧

- ن -

النايفة الذبياني : ٢١
الناطفي : ١٠
نجيب المهبتي : ٣ ، ٧٦ هـ / ٩٤
نجيب الكيلاني : ٣٣ ، ٣٠
ابن النديم (محمد بن أبي يعقوب) : ٨٦
نصر بن سيار : ٧
النظام (ابراهيم بن سيار) : ١١٦
النعمان بن المنذر : ٢١
أبو نواس (الحسن بن هاني °) : ٤ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٢ ،
٢٤ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٤١ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ،
٧٠ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٨ ، ٩٠ ،
٩٧ ، ١٠٠ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ،
٩ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١١ ،
١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٨

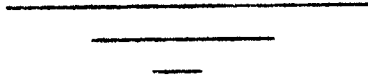
- ه -

الهادي : ٨٤
هارون بن سعد العجلي : ٦٤
أبو الهذيل العلاف : ٩٤ هـ / ٥

- و -

والبة بن الحباب : ١٢ ، ٢٦ ، ٨٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦

٥٨٠	:	٨٥/٥	:	ياقوت الحموي
١٠٩	:		:	يحيى بن اكرم
٥٢٠، ٥٧٠، ٥٨٠، ٧١٠، ٩٧٠	:		:	يزيد بن مزيد
٦	:		:	يزيد بن المهلب
٥١	:		:	يزيد بن هبيرة
٥٢	:		:	يوسف البرم



فهرس تراجم الشعراء

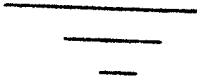
٧٤	اسحاق بن حسان الخريمى
٥٠	بشار بن برد
٥٣	أبو تمام (حبيب بن أوس)
٧٢	الحسين بن الضحاك
٤٦	دعبل بن علي الخزاعي
٤٢	ذو النون المصرى
٦٤	السيد الحميرى (اسماعيل بن محمد)
٩٣	الشافعي (محمد بن ادريس)
٩٤	صالح بن عبد القدوس
٩٢	عبد الله بن المبارك
٣٩	أبو العتاهية (اسماعيل بن القاسم)
٤٢	علي بن الجهم
٤٧	القاسم بن يوسف العجلي
٩٣	محمد بن كناسه
٤٢	محمود حسن الوراق
٥٦	مروان بن أبي حفصه
٥٢	مسلم بن الوليد
٤٠	أبو نواس (الحسن بن هاني)
٦٤	هارون بن سمد العجلي

فهرس الأماكن والبلدان

١٠	آسيا
١٠	افريقية
١٠	أنقره
٤٠/هـ	الأهواز
١٣٠٩	ايران
١٢٠٠٠٩٠٠٥٨٠٥٥	بدر
٧٨٠٥٠/هـ	البصرة
٩٠٧٠١١٠١٢٠١٣٠٣٩٠٤٠٤٢/هـ	بفداد
٤٦/هـ٠٥٣٠٥٦/هـ٠٦٤/هـ٠٧٤٠٧٨	
١٥	بلاد الروم
١٠	بلاد الزنج
١٢	بلاد ما وراء النهر
٤١	بيت الله الحرام
٤٦/هـ٠٥٢٠٧٢/هـ	بيروت
٥٣/هـ	جاسم
٥٢/هـ	جرجان
٣٦٠١٢٠٨	الجزيرة العربية
٤٢/هـ	الجيظه
١٠	الحجاز
٩٢	الحرمين الشريفين
٩٨	الخطيم
٤٢/هـ	حلب
٧٠٦	الحميمه
١٢٣٠٥٢٠١٣٠٨٠٧/هـ	خراسان
٤٠/هـ	خوزستان

٧	دجله
٩ ، ٤٠٠ هـ / ٤٢ هـ / ٥٠ هـ	دمشق
٩٨	الرقيم
٨٥	الرقه
١ ، ٢٤٠	الرياض
٩٨	زمزم
٧	سامراء
١٢	السند
٥٣ هـ / ٥٣	سوريا
٦ ، ٩٠ ، ١٣٠	الشام
٧	الصعيد
١٣	الصين
٩	طبرستان
٦ ، ٧٠ ، ٩٠ ، ١٠٠ ، ١٣٠ ، ٤٠٠ هـ / ٤٦ هـ / ٤٦ هـ	العراق
٦٤ هـ / ٦٤	عمان
٩ ، ٢٢ ، ٤٤ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١١٩	عمورية
٣٩ هـ / ٣٩	عين التمر
٩٣ هـ / ٩٣	غزه
٩٤ هـ / ٩٤	فارس
٧	الفرات
٩٣ هـ / ٩٣	القاهرة
١٢	الكرخ
٩٨	الكهف
٧ ، ١٥ ، ٣٩ هـ / ٤٦ هـ / ٤٧ هـ / ٧٨ هـ	الكوفه
٩٣ هـ / ٩٣	
١٣	المحيط الاطلسي
٩	المدائن

٤٦	المدينة المنوره
٩ ، ١٣ ، ١٤ ، ٣١ ، ٤٠ هـ / ٤١ هـ ، ٤٣ هـ / ٤٤ هـ ، ٥٢ هـ / ٥٣ هـ	مصر
٩٢ ، ٥٨	مكة المكرمة
٧١	الموصل
٤٢ هـ / ٤٣ هـ	النويه
٦٤ هـ / ٦٥ هـ	واسط
٢٣	هرقله
١٠ ، ١٣ ، ١١ هـ / ١٢ هـ	الهند
٥٦ هـ / ٥٧ هـ	اليمامه



فهرس المراجع

- ١- الآداب العربية في العصر العباسي الأول / محمد عبد المنعم خفاجي / دار
الطباعة المحمدية . القاهرة .
- ٢- الاتجاهات الأدبية في العصر العباسي / السيد أحمد خليل / مطابع بيلوس
لبنان .
- ٣- اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري / محمد مصطفى هــداره
دار المعارف القاهرة ١٩٧٠ م
- ٤- أدباء العرب في الأعصر العباسية / بطرس البستاني / مكتبة صادر بـبيروت
١٩٥١ م .
- ٥- أشعار الخليع / الحسين بن الضحاك / جمع وتحقيق عبدالستار فراج / دار
الثقافة بيروت .
- ٦- الاعلام / خير الدين الزركلي / الطبعة الثالثة
- ٧- الاغانى / أبو الفرج الأصفهاني / دار الكتب المصرية .
- ٨- أمراء الشعر العربي في العصر العباسي / أنيس المقدسى / دار العلم للملايين /
بيروت الطبعة التاسعة ١٩٧١ م .
- ٩- الاوراق (قسم أخبار الشعراء) / أبو بكر الصولى / مطبعة الصاوى / الطبعة الأولى .
- ١٠- بشار بن برد / طه الحاجرى / دار المعارف بمصر ١٩٥٤ م
- ١١- تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي / حسن ابراهيم حسن / مكتبة النهضة
المصرية ١٩٦٤ م الطبعة السابعة .
- ١٢- تاريخ الأمم والملوك / محمد بن جرير الطبرى / تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم /
دار المعارف بمصر .
- ١٣- تاريخ بغداد / الخطيب البغدادي / مكتبة الخانجي ١٩٣١ م القاهرة .
- ١٤- تاريخ الدولة العربية / قلهوزن / ترجمة محمد عبدالهادى أبوريدة . طبع
لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٨ م القاهرة .

- ١٥- تاريخ الشعر السياسي / أحمد الشايب / مكتبة النهضة المصرية / الطبعة الثانية ١٩٥٣ م القاهرة .
- ١٦- تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري / نجيب البهيتي / دار الفكر ١٩٧٠ م القاهرة .
- ١٧- حديث الاربعاء / طه حسين / دار المعارف القاهرة
- ١٨- حضارة الاسلام في دار السلام / جميل نخله مدور / القاهرة ١٩٣٢ م
- ١٩- دراسات في الأدب الاسلامي / محمد خلف الله أحمد / لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٧ م القاهرة .
- ٢٠- دراسات في الشعر العربي / عطا بكرى / مطبعة الارشاد ببغداد / الطبعة الأولى ١٩٦٧ م .
- ٢١- ديوان أبي المعتاهيه (اسماعيل بن القاسم) / تحقيق شكرى فيصل / مطبعة جامعة دمشق .
- ٢٢- ديوان السيد الحميرى (اسماعيل بن محمد) / تحقيق شاكر هادى شكر / دار مكتبة الحياة بيروت .
- ٢٣- ديوان بشار بن برد / تحقيق محمد بن الطاهر عاشور . وقف على طبعه محمد رفعت فتح ، ومحمد شوقي . طبع لجنة التأليف والترجمة .
- ٢٤- ديوان أبي تمام (حبيب بن أوس) / تحقيق محمد عبده عزام وشرح الخطيب التبريزى . طبع دار المعارف ١٩٦٥ م .
- ٢٥- ديوان أبي نواس (الحسن بن هاني) / تحقيق أحمد عبدالمجيد الغزالي .
- ٢٦- ديوان العباس بن الأحنف / دار صادر بيروت .
- ٢٧- ديوان علي بن الجهم / تحقيق خليل مردم بك / طبع المجمع العلمي العربي بدمشق .
- ٢٨- ديوان محمد بن ادريس الشافعي / تحقيق زهدى يكن / دار الثقافة بيروت .
- ٢٩- ديوان مسلم بن الوليد (صريع الغواني) / تحقيق وتعليق سامي الدهان / دار المعارف بمصر .

- ٣٠- الرثاء / شوقي ضيف / دار المعارف بمصر الطبعة الثانية.
- ٣١- رسالة الغفران / أبو العلاء المصري / تحقيق وشرح بنت الشاطي / دار
المعارف بمصر .
- ٣٢- زهديات أبي نواس / تحقيق علي الزبيدي مطبعة كوستاتسوماس القاهره
٠ ١٩٥٩ م
- ٣٣- شعر دعبل الخزاعي / صنعة عبدالكريم الأشتر . طبع المجمع العلمي
العربي بدمشق .
- ٣٤- الشعر والشعراء / محمد بن قتيبه / تحقيق أحمد محمد شاكر . دار المعارف
بمصر .
- ٣٥- شعراء عباسيون / تحقيق جرونيام جوستاف . دار مكتبة الحياة . بيروت
٠ ١٩٥٩ م
- ٣٦- الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجري / أحمد عبدالستار
الجواري . دار الكشاف ١٩٥٦ م بغداد .
- ٣٧- ضحى الاسلام / أحمد أمين / مطابع دار الكتاب العربي بيروت .
- ٣٨- طبقات الشعراء / عبدالله بن المعتز / تحقيق عبدالستار فراج . دار المعارف
بمصر .
- ٣٩- العصر العباسي الأول / شوقي ضيف / دار المعارف بمصر .
- ٤٠- العصر العباسي الأول / عبدالعزيز الدوري / نشر دار المعلمين العاليه
بغداد ١٩٤٥ م .
- ٤١- عصر المأمون / أحمد فريد رفاعي / دار الكتب المصرية ١٩٢٧ م
- ٤٢- العقد الفريد / ابن عبد ربه / شرحه وضبطه أحمد أمين ، أحمد الزين
ابراهيم البياري . طبع لجنة التأليف والترجمة ١٩٥٠ م القاهره .
- ٤٣- علي بن الجهم حياته وشعره / عبدالرحمن الباشا / دار المعارف
- ٤٤- العمده / الحسن بن رشيق القيرواني / مكتبة الخانجي القاهره ١٩٠٧ م

- ٤٥- عيون الأخبار / عبدالله الدينوري / طبع المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والنشر . القاهرة
- ٤٦- الفخر والحماسه / حنا الفاخوري / دارالمعارف ١٩٦٨ م
- ٤٧- الفن ومذاهبه في الشعر العربي / شوقي ضيف / دارالمعارف الطبعة السادسة .
- ٤٨- الفهرست / ابن النديم / المطبعة الرحمانية بمصر .
- ٤٩- فوات الوفيات / محمد بن شاکر الکتبی / تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد مطبعة السعادة بمصر .
- ٥٠- في الأثب العباسي / محمد مهدي البصير / مطبعة السعدى ببغداد الطبعة الثانية ١٩٥٥ م .
- ٥١- كيف تكتب بحثا أو رساله / أحمد شلبي / مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٨ م الطبعة السادسة .
- ٥٢- المديح / سامي الدهان / دارالمعارف ١٩٦٨ م
- ٥٣- مروج الذهب / علي بن الحسين المسعودي / بولاق القاهرة ١٢٨٣ هـ
- ٥٤- معاهد التنصيص / عبد الرحيم العباسي / مطبعة السعادة بمصر .
- ٥٥- معجم الشعراء / محمد بن عمران المرزباني / تهذيب سالم الكرفكري مكتبة المقدسى ١٣٥٤ هـ القاهرة .
- ٥٦- من حديث الشعر والنثر / طه حسين / دارالمعارف الطبعة التاسعة .
- ٥٧- الموشح / محمد بن عمران المرزباني / تحقيق علي محمد الجاوى دار النهضة ١٩٥٦ م .
- ٥٨- النجوم الزاهرة / يوسف بن تغرى بردى / طبع دار الكتب المصرية .
- ٥٩- وفيات الأعيان / أحمد بن خلکان / طبع عليه محمد محي الدين عبد الحميد مكتبة النهضة المصرية .
- ٦٠- الورقہ / محمد بن داود الجراح / تحقيق عبد الوهاب عزام و عبد الستار فراج / طبع دار المعارف .

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٥ - ١	مقدمة البحث
٣٦ - ٥	<u>الباب الأول :</u>
١٧ - ٥	- الحياة في العصر العباسي الأول
٣٠ - ١٧	- ازدهار الشعر في العصر العباسي
٣٣ - ٣٠	- مفهوم الشعر الاسلامي
٣٦ - ٣٣	- عدم دراسة الشعر الاسلامي
١٠٢ - ٣٦	<u>الباب الثاني : أغراض الشعر الاسلامي</u>
٣٨ - ٣٦	- تمهيد
٤٤ - ٣٨	- الآلهيات
٦٠ - ٤٤	- المديح
٦٧ - ٦٠	- الهجاء والدفاع عن الاسلام
٧٦ - ٦٦	- الرثاء
٩٦ - ٧٦	- الزهد والمواعظ
١٠٢ - ٩٦	- أبرز خصائص الشعر الاسلامي في هذا العصر
١٥٠ - ١٠٢	<u>الباب الثالث :</u>
١١٨ - ١٠٢	(١) آراء وردود
١٠٦ - ١٠٢	- اثبات الاتجاه الاسلامي في الشعر العباسي
١١٦ - ١٠٦	- تمثيل أبي نواس لعصره
١١٨ - ١١٦	- زهد أبي العتاهية
١٢٥ - ١١٩	(٢) نماذج من الشعر الاسلامي في هذا العصر
١٣٠ - ١٢٥	خاتمة البحث
١٥٠ - ١٣٠	الفهارس